الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة العربي بن مهيدي – أم

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم العلوم الإنسانية

المطبوعة الجامعية

العمـــران والمـراكـــز الحضـــاريـــة

موجّهة لطلبة السنة أولى ماستر

تخصص: تاريخ الغرب الإسلامي في العصر الوسيط

إعداد الأستاذ: عبد المالك بومعراف

السنة الجامعية: 2026/2025

المقدمة:

يُعدّ العمران في الغرب الإسلامي من أهم المجالات البحثية التي تتيح للدارس فهم البنية العميقة للمجتمعات التي قامت على أرض المغرب والأندلس عبر قرون طويلة من التفاعل بين الإنسان والمجال، والدولة والمجتمع، والفكر والواقع. فالعمران ليس مجرد مبانٍ أو طرز معمارية، بل هو نتاج مركّب تتداخل فيه العوامل الجغرافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية، وتتقاطع داخله الرؤى الفكرية التي صاغها العلماء والمؤرخون والجغرافيون، وهو بذلك يشكّل مرآة صادقة لصيرورة التاريخ وتحولات الاجتماع البشري.

لقد نشأ العمران المغاربي الأندلسي في بيئات متنوعة، تمتد من السهول الخصبة في المغرب والأندلس، إلى الهضاب العليا والصحاري الواسعة في المغرب الأوسط، إلى الشواطئ المتوسطية التي شكّلت نقطة وصل مع حضارات أخرى. وهذا التنوّع البيئي لم يكن مجرد خلفية جغرافية محايدة، بل كان عاملًا فاعلًا في تشكيل طبيعة الاستقرار البشري، وفي رسم ملامح المدن العريقة مثل فاس، تلمسان، بجاية، القيروان، سبتة، قرطبة، وغرناطة. إن اختلاف الموارد، وتباين المناخ، وتعدّد طرق التجارة، أسهم جميعه في إنتاج أنماط عمرانية متنوّعة، تجمع بين الأصالة الإسلامية وبين القدرة على التكيّف مع المجال.

كما أنّ العمران في الغرب الإسلامي كان وثيق الصلة بالبنية السياسية والاقتصادية التي عرفتها المنطقة عبر عصور مختلفة. فالدول المتعاقبة ـ من الأمويين في الأندلس، إلى الأدارسة، والرستميين، والأغلبية، والفاطميين، والزيريين، والمرابطين، والموحدين، والحفصيين، والمرينيين، والزيانيين ـ تركت آثارًا معمّرة في المدن، سواء من خلال تخطيط جديد، أو إنشاء مراكز علمية ودينية، أو بناء منشآت دفاعية وإدارية وتجارية. وقد ارتبطت ازدهارات العمران أو تراجعاته ارتباطًا مباشرًا باستقرار الدولة أو اضطرابها، وبحركة السكان وهجراتهم، وبالتفاعل الثقافي الذي أغنى الحياة العلمية والفكرية.

ومن زاوية اجتماعية، يظهر العمران ككائن حيّ يتشكل وفقًا لحركة السكان وتفاعلهم مع بعضهم ومع مجالهم. فالهجرات الداخلية، وتحضّر القبائل، وانتقال العلماء والحرفيين، كانت جميعها عوامل تضيف إلى المدينة طاقات وخصائص جديدة، فتتسع الأحياء، وتتخصّص الأسواق، وتتطور الحرف والصناعات، ويتشكل نسيج حضري قادر على الاستجابة لمتطلبات الحياة. وقد كان لانتقال الفئات الحضرية المتعلمة ـ مثل الأندلسيين والمشارقة والمغاربة ـ أثرٌ واضح في تجديد الأساليب العمرانية، وفي إدخال تقنيات جديدة في البناء والزخرفة وإدارة الماء.

ولم يكن الفكر الإسلامي بعيدًا عن هذا المسار؛ فقد أبدع العلماء في تقعيد نظرات عمرانية رصينة، تناولت علاقة الإنسان بالمجال، وتنظيم المدن، ووظائف المؤسسات الحضرية، وحدود التوسع، وشروط العدل والأمن لحماية العمران من الخراب. وقد أسهم المؤرخون والجغرافيون والفقهاء بدرجات متفاوتة في وصف المدن وتخطيطها ومعالمها، وفي بيان صلتها بالتجارة والعلم والسياسة والمجتمع، مما أتاح رؤية شاملة للعمران كنسق حضاري متكامل.

في هذا السياق، تأتي هذه المطبوعة الجامعية لتقدم للطلبة إطارًا علميًا منظّمًا لدراسة العمران في الغرب الإسلامي بالاعتماد على المحاضرات النظرية والمواد التاريخية والجغرافية الأصيلة. وتهدف إلى تمكين الطلبة من فهم تطور العمران عبر المراحل المختلفة، ابتداءً من مرحلة الفتح الإسلامي، مرورًا بالدول الكبرى التي طبعت المنطقة بطابعها، وانتهاءً بدراسة أثر الحروب والهجرات والظواهر الطبيعية في تشكيل المراكز الحضرية. كما تسعى إلى ربط الظواهر العمرانية ببناها السياسية والاجتماعية والديموغرافية، وإلى تدريب الطلبة على تحليل النصوص التاريخية وربطها بالواقع الحضري.

منهجية مقياس: العمران والمراكز الحضارية

1- طبيعة المقياس:

يُعدّ مقياس العمران والمراكز الحضارية في الغرب الإسلامي من المقاييس الأساسية في تخصّص تاريخ الغرب الإسلامي في العصر الوسيط، ويمثّل مدخلًا علميًا لدراسة تطوّر المدن، وخصائص العمران، والعوامل المؤثرة فيه، والتحولات الديموغرافية والثقافية والاجتماعية التي شهدتها المنطقة بين القرنين (1هـ – 10هـ).

يهدف المقياس إلى تمكين الطالب من فهم البنية العميقة للعمران المغاربي والأندلسي، وتحليل النصوص التاريخية المتعلقة بالمدن، وإدراك الصلات بين العمران والسياسة والاقتصاد والمجتمع.

2- الإشكالية العامة للمقياس:

كيف تشكّل العمران في الغرب الإسلامي عبر مراحله المختلفة؟

وما هي العوامل السياسية والاجتماعية والدينية والاقتصادية والبيئية التي أسهمت في بناء المدن أو تراجعها؟

وكيف نقرأ المراكز الحضارية من خلال النصوص التاريخية والجغرافية وفق منهج علمي؟

3- أهداف التعلّم:

أ) أهداف معرفية:

- الإلمام بالمفاهيم الأساسية للعمران والعمارة الإسلامية.
- التعرف على المراحل الكبرى للتطور العمراني في المغرب والأندلس.
- فهم دور الدول المتعاقبة في تشكيل المدن وتخطيطها.
- تحليل أثر الظواهر الطبيعية والحروب والهجرات على المدن.
- التمييز بين الأنماط العمرانية المختلفة: الديني، العسكري، التجاري، السكني.
- فهم العلاقة بين العمران والديموغرافيا.

ب) أهداف مهارية:

- القدرة على تحليل النصوص التاريخية العمرانية (ابن خلدون، البكري، ابن حوقل، ابن الرامي...).
- اكتساب مهارة المقارنة بين المدن عبر الفترات التاريخية.
- بناء خرائط ذهنية لتطوّر المراكز الحضرية.
- توظيف المصادر الجغرافية والرحلات لفهم الواقع الحضري.
- كتابة تقارير ودراسات قصيرة في العمران الوسيط.

ج) أهداف سلوكية:

- تعزيز روح البحث العلمي والتحليل.
- فهم أهمية العمران في تشكيل الهوية الحضارية.
- احترام التنوع الثقافي والمعماري في الغرب الإسلامي.

المحاضرة (01): مفهوم العمران والعمارة الإسلامية

مدخل عام:

يُعدّ العمران أحد المفاتيح الكبرى لفهم البنية الحضارية والاجتماعية والسياسية في الغرب الإسلامي والأندلس خلال العصر الوسيط. فالعمران ليس مجرد دراسة للأبنية أو الفنون المعمارية، بل هو مجال معرفي واسع يدرس المدينة باعتبارها كائنًا حيًا يتأثر بالتحولات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية، ويؤثر فيها بدوره. ومن ثم فإن تحليل العمران يتيح للمؤرخ قراءة الواقع الحضاري بطريقة تختلف عن القراءة التقليدية للنصوص التاريخية؛ إذ يقدّم العمران دليلًا ماديًا على مسار الدولة والمجتمع.

فالمدينة بطرقاتها، وأسواقها، ومساجدها، ودورها السكنية، وأسوارها، ومؤسساتها العلمية والدينية، تمثّل سجلًا حضاريًا متكاملًا، يعكس مستوى الرخاء أو التراجع، ومؤشرًا حقيقيًا على قوة الدولة أو ضعفها. وكلما ازدادت المدينة تنظيمًا واتساعًا وازدهارًا، كان ذلك دليلًا على وجود سلطة مركزية قوية، واقتصاد فعّال، وحياة اجتماعية وثقافية نشطة.

وتُعدّ قرطبة في العصر الأموي نموذجًا بارزًا لهذه العلاقة بين العمران والحضارة؛ فقد تحوّلت إلى مركز عالمي بفضل كثرة مساجدها ومدارسها وزواياها ومكتباتها، وازدهار صناعاتها وأسواقها، وحسن تنظيم مرافقها. ومن خلال دراسة عمران قرطبة يمكن فهم أسباب إشعاعها العلمي وقوتها السياسية والاقتصادية، وكيف استطاعت أن تتفوّق على كبريات مدن أوروبا في ذلك الوقت.

ومن هذا المنطلق، يشكّل هذا المقياس نافذة علمية لفهم المجتمع الإسلامي في المغرب والأندلس عبر قراءة مراكزه الحضرية، وأسواقه، ومساجده، ومدارسه، وقصباته وحصونه، وسائر مكوّناته العمرانية التي تعبّر عن تاريخه وخصائص حضارته.

أولًا: أهمية دراسة العمران في حقل التاريخ

تمثّل دراسة العمران مدخلًا معرفيًا دقيقًا يمكّن المؤرخ من تحليل طبيعة المجتمع وتحوّلاته، وذلك من خلال عدة جوانب:

1- العمران بوصفه انعكاسًا للحضارة:

العمران هو المرآة التي تعكس مستوى التمدّن الذي يبلغه مجتمعٌ ما. فوجود مدن واسعة التنظيم، وأسوار متينة، ومرافق نشطة، وأسواق مزدهرة، يشير إلى:

- ✓ قوة الدولة وقدرتها على ضبط المجال.
- ✓ وفرة الموارد الاقتصادية.
- ✓ وجود مجتمع مستقر قادر على الإنتاج والتبادل التجاري.
- ✓ انتشار العلم والثقافة، وهو ما يظهر خاصة في كثرة المساجد والجامعات والزوايا.

كما أن تراجع العمران- تقلص المدن، خراب الأسواق، ضعف البنية التحتية - يمثّل مؤشرًا على الانكماش الاقتصادي أو الاضطرابات السياسية والاجتماعية.

2- العمران أداة لقراءة التحولات السياسية والاجتماعية:

يُسهم العمران في تفسير جوانب دقيقة من التاريخ، منها:

- **نمط عيش الناس:** توزيع الأحياء، نوعية المساكن، تنظيم الأسواق.
- **درجة الأمن والاستقرار:** يظهر ذلك من كثرة التحصينات ودور الشرطة ووجود أسوار قوية.

- **قوة الدولة:** تتجلى في مشاريع عمرانية كبرى، مثل بناء المدن الجديدة (المرابطون، الموحدون).
- **أسباب الازدهار أو الانهيار:** انتقال العاصمة، توجّه الدول للاستثمار في المؤسسات الدينية أو الاقتصادية، تأثير الضرائب، وغيرها.

وبذلك تتحول دراسة العمران إلى منهج لفهم السياق الحضاري العام للغرب الإسلامي والأندلس.

ثانيًا: المفاهيم الأساسية للمقياس

1- تعريف العمران:

لغةً: من الجذر ع م ر، ويشير إلى السكن والبناء والاستقرار، ومنها عَمَرَ المكانَ أي بناه وسكنه، والعُمْران ضدّ الخراب.

اصطلاحًا: العمران عند المؤرخين يشمل مجموع المظاهر الحضرية المكوّنة للمدينة، مثل:

المباني، الأحياء، القصور، الأسواق، المساجد، المدارس، الأسوار، الحصون، الطرق، المقامات، والحدائق، وما يرتبط بها من أنظمة الحياة الاجتماعية والاقتصادية.

2- تعريف العمارة الإسلامية: العمارة الإسلامية هي النتاج المادي والفني الذي أبدعه المسلمون عبر تاريخهم، وتميّز بخصائص جمالية ووظيفية وتنظيمية مرتبطة بمبادئ الإسلام وروحه الحضارية. وتشمل:

- المساجد بما تحويه من محاريب ومنابر وصحن ومآذن.
- المدارس والزوايا والربط.
- القصور السلطانية.
- المنشآت التجارية كالفنادق والخانات والوكالات.
- المنشآت العسكرية كالأسوار والرباطات والحصون.
- المنشآت المائية مثل السقايات والحمامات والقناطر.

هذه العمارة ذات هوية واضحة، لكنها تتكيّف مع البيئة الجغرافية للمغرب والأندلس وتستفيد من تقاليد البناء المحلية.

3- تعريف المراكز الحضارية: المراكز الحضارية هي المدن الكبرى التي احتضنت النشاط العلمي والثقافي والتجاري والسياسي. وقد شكّلت هذه المدن أعمدة الحضارة في الغرب الإسلامي، ومن أبرزها:

- قرطبة: حاضرة الأندلس الكبرى ومركز العلم والفقه والأدب.
- فاس: جامعة عالمية تضم جامع القرويين ومراكز علمية مرموقة.
- مراكش: عاصمة المرابطين والموحدين.
- بجاية: مدينة تجارية وعلمية ازدهرت في عهد الحماديين والموحدين.
- تلمسان: قلب الزيانيين الثقافي والتجاري.

وهذه المراكز تمثّل نماذج متقدمة لفهم العمران ودوره في بناء الحضارة.

ثالثًا: أهداف مقياس العمران والمراكز الحضارية

يهدف المقياس إلى تمكين الطالب من بناء معرفة علمية راسخة بالعمران في الغرب الإسلامي والأندلس، ويتجلى ذلك في:

1- فهم مفهوم العمران عند المؤرخين المسلمين: ولا سيّما عند ابن خلدون الذي قدّم نظرية متكاملة حول:

- نشأة المدن.
- أسباب قوتها وتوسعها.

- العوامل المؤدية إلى ضعف العمران وخرابه.

2- التعرف على عوامل نشأة المدن والمراكز الحضرية: وخاصة تلك المرتبطة بـ:

- السياسة (نقل العواصم، بناء مدن جديدة).
- الاقتصاد (طرق التجارة، الزراعة، الصناعات).
- المجتمع (القبائل، الهجرات، السكان).
- الدين (المساجد، المدارس، الزوايا).

3- دراسة المراكز الحضرية الكبرى: من خلال تحليل:

- تطورها التاريخي.
- وظائفها الاقتصادية.
- دورها العلمي والثقافي.
- أثر الملوك والدول في عمرانها.

4- إبراز الوظيفة العلمية والثقافية والتجارية للمدن: من خلال مؤسساتها العمرانية مثل:

- الجامعات والمساجد.
- الأسواق والخانات.
- الأحياء الحرفية.

5- ربط العمران بالتحولات السياسية والاقتصادية والاجتماعية: وهذا يتيح للطالب فهم الديناميكية الحضارية التي حكمت تطور الغرب الإسلامي والأندلس في العصر الوسيط.

خاتمة:

تكشف دراسة العمران عن العمق الحضاري للمغرب الإسلامي والأندلس، إذ يسمح العمران بقراءة دقيقة لمسار نشوء المدن وازدهارها وتراجعها، ومعرفة تأثير الدولة والمجتمع في تشكيل الفضاء الحضري. ومن خلال هذا المدخل يستطيع الباحث فهم التاريخ الحضري فهماً أكثر تكاملاً، والتعرّف على خصوصية العمران الإسلامي وخصائصه ووظائفه، مما يجعله إحدى الركائز الأساسية في دراسة التاريخ الحضاري للغرب الإسلامي.

المحاضرة (02): العمران في الفكر الإسلامي

مدخل عام:

يمثل العمران في الفكر الإسلامي مفهومًا شاملًا يتجاوز البناء المادي للمدن إلى بناء الإنسان والمجتمع والدولة. وهو نابع من التصور القرآني للإنسان بوصفه مستخلفًا في الأرض ومكلفًا بعمارتها وفق مبادئ الهداية والعدل. وعليه، فالعمران في الإسلام ليس نشاطًا دنيويًا منفصلًا عن القيم، بل هو مشروع حضاري يتداخل فيه البعد الروحي مع البعد المادي، ويتكامل فيه العلم والاقتصاد والسياسة مع الأخلاق والبيئة.

وتسعى هذه المحاضرة إلى توضيح الأسس القرآنية والنبوية لعمران الإنسان والمكان، والعلاقة بين العمران والعمارة والتنمية، مع إبراز التطبيقات العملية التي ظهرت عبر التاريخ الإسلامي.

أولا: مفهوم العمران في التصور الإسلامي

1- الأصول القرآنية للعمران:

يرتكز التصور الإسلامي للعمران على مبدأ الاستخلاف، كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾

وهو نصّ يقرر أن عمارة الأرض مقصد شرعي، وواجب حضاري، ومسؤولية إنسانية. فالإنسان مُطالَب بإصلاح الأرض لا إفسادها، وبتنمية الحياة لا تعطيلها.

ويشير القرآن إلى أن عمارة الأرض تُبنى على منظومة قيمية تشمل العدل، والاعتدال، وحماية البيئة، وتوظيف الموارد ضمن ميزان أخلاقي يحفظ للإنسان كرامته وللأرض استدامتها.

2- تعريف العمران في الفكر الإسلامي:

اصطلاحًا: العمران هو كل نشاط بشري يهدف إلى إقامة الحياة واستمرارها وفق مقاصد الشريعة، ماديًا كان مثل: بناء المدن، والزراعة، والتجارة، أو معنويًا مثل: العلم، والقيم، والعدالة.

ويعرّفه ابن منظور بأنه نقيض الخراب، ويشير إلى الكثرة في الخير والسكنى.

ويرتبط العمران في الإسلام بنهجٍ يقوم على الترابط بين الإنسان والمكان والقيم.

3- العلاقة بين العمران والعمارة والتنمية:

العمران: منظومة شاملة تشمل الإنسان والمكان والنظام.

العمارة: الجانب المادي والتخطيطي من العمران، أي المباني والتنظيم المكاني.

التنمية: مفهوم اقتصادي اجتماعي حديث، يُعد جزءًا من العمران لا مرادفًا له.

وتختلف مظاهر العمران في العالم الإسلامي تبعًا للبيئة، فالعمران في الحجاز ذو طابع بسيط، وفي العراق مرتبط بالماء والزراعة، وفي الأندلس يجمع بين الهندسة والعلم، وفي المغرب يتخذ طابعًا دفاعيًا رباطيًا.

ثانيًا: الأسس القرآنية للعمران

1- مبدأ الخلافة والاستخلاف:

تقرر الآية: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ أن الإنسان مسؤول عن إدارة الأرض وتنميتها، وهو تكليف يحمّله مسؤولية الإصلاح لا الإفساد. ويتأكد هذا المعنى بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى... وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ﴾ مما يدل على أن الإنسان مؤتمن على ما استُخلِف فيه.

2- مبدأ التسخير والتوازن: أودع الله الأرض والكون لخدمة الإنسان، بشرط الالتزام بالعدل والاعتدال: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾، ويقتضي ذلك رفض الإسراف والتبذير والتلوث، وهو مكوّن أخلاقي من مكونات العمران.

3- مبدأ العدالة والشورى: العمران لا يقوم على الظلم أو الاستبداد؛ إذ يأمر الله بالعدل والإحسان.

فالعدالة السياسية والاجتماعية شرط لازدهار العمران، وقد قرر ابن خلدون أن الظلم مؤذن بخراب العمران.

4- مبدأ التعمير المادي والروحي: يجمع الإسلام بين عمارة المساجد وعمارة الأرض، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ...﴾ فعمارة المكان لا تنفصل عن عمارة القيم، ويُفهم من عمارة المسجد امتلاؤه بالعبادة والعمل الصالح، لا مجرد البناء.

ثالثًا: الأسس النبوية والعملية للعمران

1- النموذج النبوي في المدينة المنورة: عند الهجرة، أسس النبي ﷺ نموذجًا عمرانيًا متكاملًا، تمثلت عناصره في:

- المسجد: مركز العبادة والقيادة.
- السوق: مركز النشاط الاقتصادي.
- المؤاخاة: نظام اجتماعي متماسك.
- الدستور المدني: قاعدة قانونية لتنظيم العلاقات.

وأدى اختيار المدينة موقعًا متوسطًا بين الحجاز والشام واليمن إلى تعزيز دورها في التجارة الإقليمية.

2- العمران بوصفه عبادة: يتجلى البعد التعبدي في قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ما من مسلم يغرس غرسًا فيأكل منه إنسان أو دابة إلا كان له صدقة)، وهو نصّ يؤكد أن العمل العمراني نشاطٌ تعبدي.

3- التوازن بين الروح والمادة: رفض الإسلام الرهبنة كما رفض المادية المطلقة، وأقام نظرته العمرانية على الوسطية التي توفق بين حاجات الإنسان الروحية والمادية.

4- حماية البيئة والموارد: نهى الإسلام عن الإفساد وقطع الأشجار دون ضرورة، وشكّل نظام الوقف إحدى أهم آليات التنمية العمرانية، إذ أسهم في تمويل المساجد والمدارس والمستشفيات وغيرها من المرافق.

رابعًا: القيم العمرانية في الحضارة الإسلامية

1- مركزية الإنسان: كرّس العمران الإسلامي الإنسان محورًا للنهضة، مما جعل التعليم، والطرق، والمياه، والمستشفيات (البيمارستانات) من أولويات الدولة. وقد أسهم الوقف في جعل التعليم مجانيًا في مراكز حضارية كقرطبة وبغداد.

2- قيمة الجمال والإتقان: يُعدّ الإتقان مبدأً عمرانيًا؛ إذ يرتبط بالجودة والجمال ضمن حدود الاعتدال، مما انعكس على العمارة والزخرفة الإسلامية.

3- التكافل والعمل الجماعي: يقوم العمران على التعاون الاجتماعي، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾.

4- الانفتاح والتنوع:اتسمت المدن الإسلامية الكبرى بالانفتاح على العلم والتجارة وتنوع الأعراق والثقافات، مما أسهم في تطور العمران ونموّه.

خامسًا: تطبيقات العمران في التاريخ الإسلامي

1- نماذج المدن الكبرى:

- بغداد: مثال على التخطيط الدائري، وارتباط الدين بالإدارة والتجارة.
- قرطبة: اشتهرت بنظامها المائي المتطور ونظافة المدينة.
- فاس: نموذج للوقف العلمي والروحي، ولتنظيم الأحياء.

2- مؤسسات العمران: تجسد مؤسسات مثل الوقف، والسوق، والمسجد، والمدارس، والزوايا، فلسفة العمران الشامل.

خاتمة:

يتجاوز العمران في الفكر الإسلامي البناء المادي إلى بناء الإنسان والمجتمع. وهو مشروع حضاري يجمع بين الروح والعقل والمادة، ويقوم على مبادئ الاستخلاف والعدل والتوازن. وقد سبق الفكر الإسلامي كثيرًا من النظريات الحديثة في التنمية، مما يجعل دراسته مدخلًا لفهم تطور العمران في الغرب الإسلامي قبل الانتقال إلى النظرية الخلدونية في العمران البشري.

المحاضرة (03): العمران في الفكر الخلدوني

مدخل عام:

بعد تناول مفهوم العمران والعمارة الإسلامية، ودراسة العمران في الفكر الإسلامي العام، ينتقل هذا الدرس إلى محطة مركزية في هذا المقياس، وهي: العمران في الفكر الخلدوني.

ويمثّل عبد الرحمن بن خلدون (732هـ/1332م – 808هـ/1406م) أحد أبرز المفكرين الذين وضعوا أسس علم العمران البشري؛ فهو لم يكتفِ بسرد الحوادث التاريخية، بل درس المجتمع والسلطة والعمران وفق منهج تحليلي جعل منه رائدًا في علم الاجتماع قبل ظهوره بمئات السنين.

وتُعدّ المقدمة التي وضعها لكتابه العبر من أهم النصوص المؤسسة للفكر العمراني والاجتماعي، حيث تناول فيها نشأة العمران ونموه ومرضه وشيخوخته، بوصفه كائنًا حيًا يخضع لقوانين عامة.

أولًا: التعريف بابن خلدون

1- حياته ونشأته: هو عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، وُلد بتونس في أسرة أندلسية الأصل من إشبيلية، عاش في بيئة سياسية مضطربة، مما دفعه إلى التأمل في أحوال الدول والمجتمعات.

2- رحلاته ومؤلفاته: تنقّل بين المغرب والأندلس ومصر، واختلط بالعلماء والملوك والإداريين، مما أكسبه خبرة واسعة في الشؤون السياسية والاجتماعية.

من أهم مؤلفاته:

- المقدمة، وهي تمهيد لكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر.
- لباب المحصل في أصول الدين.
- رسائل في الحساب والمنطق.

وقد كوّن من خلال هذه التجارب نظرة موسوعية مهدت لابتكار علم العمران البشري.

ثانيًا: معنى العمران عند ابن خلدون

1- العمران مفهوم شامل: استخدم ابن خلدون لفظ "العمران" استخدامًا جديدًا، يتجاوز البناء المادي ليشمل الاجتماع الإنساني بكل مظاهره السياسية والاقتصادية والأخلاقية.

يقول في المقدمة:"إني رأيت أن أكثر ما يعرض لأحوال الاجتماع الإنساني من التغيّر والاختلاف إنما هو من أحوال العمران." ويقرر أن الإنسان بطبيعته لا يعيش منفردًا، بل يتعاون مع غيره لتحقيق معاشه: "إن الاجتماع الإنساني ضروري، ويُعبّر عنه بالعمران البشري."

2- الفرق بين العمران والعمارة:

العمارة: الجانب المادي من البناء والإصلاح.

العمران: الاجتماع الإنساني المنظّم وما ينشأ عنه من علوم وصناعات وسياسات وثقافة.

فالعمارة جزء من العمران، لكنها لا تكوّن عمرانًا إلا إذا وُجد مجتمع بشري يتفاعل داخل هذا البناء.

- **مثال توضيحي:** بناء مدينة حديثة ذات مبانٍ شاهقة وتجهيزات متطورة هو عمارة، أما تحوّلها إلى مجتمع ذي نظام اقتصادي وثقافي وسياسي فهو عمران.

ثالثًا: أقسام العمران عند ابن خلدون

1- العمران البدوي: أصل العمران وأساسه، يعتمد على القوت الضروري، والرعي والزراعة، ويمتاز بالبساطة والخشونة، وبوجود عصبية قوية.

2- العمران الحضري: يقوم على الاستقرار وظهور المدن والصناعات والفنون، نتاج الترف ووفرة العيش، يؤدي الترف الطويل إلى ضعف العصبية، مما يجعل الحضارة معرضة للانهيار.

ويرى ابن خلدون أن الحضارة لا تستقر إلا بعد المرور بمرحلة البداوة؛ لأن البدو يمتلكون العصبية التي تُمكِّنهم من إقامة الدولة.

3- الدورة الخلدونية للعمران:

العصبية، الدولة، العمران، الرفاه، الضعف، الانهيار.

وهي دورة تاريخية تتكرر عبر العصور.

رابعًا: عناصر العمران ومقوماته

1- العصبية: هي الرابطة التي تجمع الناس على التعاون والتناصر، تقوم على القرابة أو التحالف أو الانتماء الديني أو الفكري، من دونها لا تقوم دولة ولا يستقر عمران.

ضرب ابن خلدون أمثلة من قبائل العرب والبربر، ولاسيما المرابطين والموحدين الذين قامت دولهم على العصبية القوية.

ما الذي يضعف العصبية؟ الترف، والأنانية، والبعد عن العمل، والانقسام الداخلي.

2- الدولة والنظام السياسي: يؤكد ابن خلدون أن الدولة ضرورة للعمران، لأنها: تقيم العدل، وتحفظ الأمن، وتنظم الثروات، وتضبط العلاقات الاجتماعية. ويقول في قاعدة مشهورة: **"الظلم مؤذن بخراب العمران"**، مبينًا أن العمران لا يزدهر في ظل ظلم أو فساد.

3- الاقتصاد وتقسيم العمل: يرى ابن خلدون أن ازدهار العمران مرتبط بزيادة عدد السكان، وتنوّع الحرف، واتساع الصناعات.

فالحضارة ليست قصورًا، بل هي: حِرَف، وصناعات، وعلاقات، وإنتاج. وكلما تنوع العمل وتخصص الأفراد، قوي العمران.

الخاتمة:

يتبين من دراسة العمران في الفكر الخلدوني أنه يقوم على منظومة مترابطة من العناصر:

1- الإنسان وقيمه الاجتماعية: فالترف، والأنانية، والانقسام الداخلي، والابتعاد عن العمل، تؤدي إلى ضعف العصبية وتراجع العمران.

2- الدولة والنظام السياسي: الدولة شرط لقيام العمران؛ فهي الضامن للعدل والأمن وتنظيم الثروة.

وقوله: «الظلم مؤذن بخراب العمران» قاعدة تكشف العلاقة بين الحكم الرشيد وازدهار الحضارة.

3- الاقتصاد وتقسيم العمل: كلما تنوعت الحرف والصناعات وكثر السكان، ازدهر العمران، لأن الحضارة شبكة إنتاجية قبل أن تكون مباني مادية.

وتُعدّ هذه الأسس مدخلًا ضروريًا لفهم تطور العمران في الغرب الإسلامي، واستيعاب نظرة ابن خلدون للعوامل المؤثرة في قيام الدول وسقوطها.

المحاضرة (04): خصائص العمارة الإسلامية

مدخل عام:

تُعدّ العمارة أحد أبرز المظاهر المادية للحضارة الإسلامية، وهي المرآة التي تعكس قيم المجتمع وثقافته ومستوى تقدّمه. فالعمارة ليست مجرد بناء، بل هي لغة تتحدث عن الإنسان ونظرته للكون، وعن الدولة ونظامها، وعن المجتمع وذوقه واعتداله. ويتميز الغرب الإسلامي — المغرب والأندلس — بإرث معماري ضخم، تركه الجغرافيون والمؤرخون في كتبهم، من أمثال البكري، وابن حوقل، واليعقوبي، وابن أبي زرع، والنويري، وابن الرامي، وابن القنفذ، وغيرهم.

وقد تطورت العمارة الإسلامية في هذه المنطقة عبر قرون، متأثرةً بالبيئة، وبالاحتكاك الحضاري، وبالأوضاع السياسية والاقتصادية، حتى بلغت ذروة نضجها الفني في الأندلس، وخصوصًا في قرطبة وغرناطة، وفي مدن المغرب مثل فاس ومراكش وبجاية وتلمسان.

وتسعى هذه المحاضرة إلى تحليل خصائص هذا الفن، والوقوف على الأسس التي شكّلته، والعناصر التي حفظت تميّزه.

أولًا: الأسس الفكرية للعمارة الإسلامية

1- التوحيد أساس الجمال: تجسّد العمارة الإسلامية عقيدة التوحيد من خلال الابتعاد عن التمثيل البشري والرموز الوثنية، والاعتماد على الهندسة والانسجام، بما يعكس صفاء العقيدة ووحدة الخالق.

2- المقصد الاجتماعي: العمارة أداة لخدمة المجتمع، وليست وسيلة للترف أو المباهاة. وتشمل منشآت متنوّعة: مساجد، أسواق، أسبلة، حمّامات، أسوار، ورباطات... مما يجعلها عنصرًا مباشرًا في بناء العمران واستقراره.

3- الاعتدال ونبذ الإسراف: ترتكز العمارة الإسلامية على التوازن دون إفراط أو تفريط، مع الاقتصاد في الزخرفة، وتوجيه الموارد لبناء ما ينفع الناس ويخدم حياتهم.

ثانيًا: الخصائص الجمالية والإنشائية

1- البساطة والسمو الروحي: غياب المبالغة في الزخرفة، واعتماد الجمال الهادئ المرتبط بالمعنى الروحي.

2- الحدائق والعمارة الخضراء: تُعدّ حدائق الأندلس نموذجًا للجمال الإسلامي، حيث الأحواض والسقايات والتناغم بين الماء والنبات.

3- الهندسة والتماثل: اعتماد الأنماط الهندسية الدقيقة، والتناسب في المساحات، والمتتاليات الزخرفية ذات الإيقاع البصري.

4- الخط العربي: دمج الآيات القرآنية والنقوش الكتابية في المساجد والقصور، باستخدام الخط الكوفي بالخصوص.

5- المواد المحلية:

- المغرب: الحجر والطين.
- الأندلس: الجص والرخام.
- الجزائر الوسطى والصحراء: الحجر واللبن والخشب

ثالثًا: العناصر المعمارية الأساسية

تشمل العناصر الأكثر حضورًا في العمارة الإسلامية: المحراب، المنبر، الصحن، القبة، المئذنة، الإيوان، الأقواس، المشربيات، الأسوار والحصون (فاس، تلمسان، بجاية، مراكش...).

رابعًا: عوامل تطور العمارة الإسلامية

- الجغرافيا والمناخ
- الاحتكاك الحضاري بالأمم المجاورة
- الازدهار الاقتصادي
- الرعاية السياسية والوقف

خامسًا: التطور التاريخي للعمارة الإسلامية

1- العصر النبوي والراشدي: نموذج المسجد النبوي بوظيفته المتعددة وبنائه البسيط.

2- العصر الأموي: ظهور الفسيفساء والقباب والمآذن المربعة (الجامع الأموي، قبة الصخرة).

3- العصر العباسي: المدن الدائرية، وابتكار الإيوان، والاعتماد على الطوب والجص.

4- عصر الأندلس والمغرب الإسلامي: الأقواس الحدوية، الزخرفة الجصّية، الأبواب المنقوشة (قرطبة، الحمراء، العطارين).

5- العصر العثمان: اتساع القباب، المآذن الرفيعة، وبروز المعمار سنان (السليمانية).

سادسًا: التحليل الوظيفي للمنشآت الإسلامية

المنشأة	الوظيفة الرئيسة	مثال تاريخي
المساجد	عبادة + تعليم + إدارة	المسجد النبوي
المدارس	تعليم شرعي وعلمي	المدرسة النظامية
الرباطات	دفاع + عبادة	رباط سوسة
البيمارستانات	رعاية صحية	بيمارستان نور الدين
الحمّامات	نظافة + اجتماع	حمامات بغداد وفاس
الأسواق	اقتصاد + ضبط اجتماعي	سوق القيروان

الخاتمة:

إن العمارة الإسلامية في الغرب الإسلامي ليست حجارة ومواد، بل روحٌ وهويةٌ وقيم؛ تشهد بالحضارة، وتدل على ذوق الأمة، وتُبرز رسالتها في تهذيب الإنسان عمرانًا ومعنى.

وقد استطاعت هذه العمارة أن تقدّم نموذجًا متوازنًا بين العقيدة والفن، وبين العقل والذوق، وبين الأصالة والتطور التاريخي.

ولئن تركت حضارات كثيرة مباني ضخمة، فإن العمارة الإسلامية خلفت آثارًا تحمل معنى التوحيد والكرامة الإنسانية، وتظل شاهدًا على دور الأمة في صياغة تاريخ الجمال والمعرفة.

المحاضرة (05): مراحل وخصائص التطور العمراني في المغرب الإسلامي من الفتح إلى العهد الفاطمي

مدخل عام:

يشكل التطور العمراني في المغرب الإسلامي أحد المداخل الأساسية لفهم التحولات التاريخية والاجتماعية والثقافية منذ الفتح الإسلامي وحتى العهد الفاطمي. ويعكس العمران المغربي الإسلامي تفاعل الإنسان مع بيئته الطبيعية، واستلهامه للمبادئ الدينية والاجتماعية في بناء المدن والمراكز الحضرية.

وقد اعتمد المؤرخون والجغرافيون، مثل البكري وابن حوقل واليعقوبي وابن خلدون وابن أبي زرع والنويري وابن الصغير، على وصف دقيق للمدن المغربية ونموها عبر المراحل المختلفة، مما يسمح بدراسة تطور العمران وفق رؤية تاريخية ومنهجية واضحة.

أولًا: الإطار العام لتطور العمران في المغرب الإسلامي

1- مفهوم التطور العمراني وطبيعته: التطور العمراني هو عملية بناء وتنظيم المدن وفق معايير دينية واجتماعية وسياسية، وبما يتناسب مع البيئة والمناخ والموارد الطبيعية. وقد وفر المغرب الإسلامي، بتنوع تضاريسه ووفرة موارده، بيئة مناسبة لتطور عمراني متدرج منذ الفتح.

2- أثر الفتح الإسلامي في تشكيل العمران: أدخل الفتح الإسلامي أنماطًا جديدة من التنظيم العمراني، أبرزها اعتماد المسجد الجامع مركزًا للمدينة، وظهور الأسواق المنظمة، وتخطيط الأحياء السكنية بشكل واضح.

وقد أشار البكري إلى نشأة المدن الأولى بعد الفتح، بينما قدّم ابن خلدون تفسيرًا اجتماعيًا وسياسيًا لنمو المدن المغربية.

3- الطابع القيمي للعمران المغربي: لم يكن العمران مجرد بناء مادّي، بل كان انعكاسًا للقيم الدينية والاجتماعية؛ إذ احتوت المدن على المسجد الجامع والقصور والأسواق والمساكن، مع مراعاة البيئة والمناخ.

ثانيًا: المرحلة الأولى - من الفتح إلى قيام الدولة الأغلبية (القرن 1–2هـ / 7–8م)

1- الظروف التاريخية والسياسية: بدأ الفتح الإسلامي بقيادة عقبة بن نافع، وتبعه عدد من الحملات، مما استدعى إنشاء مراكز حضرية ثابتة للإدارة والدين والعسكر.

2- نشأة النواة العمرانية الأولى - مدينة القيروان: مثّلت القيروان نموذجًا للمدينة الإسلامية المبكرة، حيث تميزت بـ:

- المسجد الجامع مركز المدينة.
- الأسواق المرتبة حسب الوظائف.
- الأحياء السكنية المنظمة.

وقد أكد ابن حوقل أهمية موقع القيروان لارتباطه بالطرق التجارية وقربه من الموارد المائية

3- خصائص العمارة في هذه المرحلة:

- **البساطة:** غلبة الوظيفة على الزخرفة.
- **المواد المحلية:** استخدام الطوب والطين والحجارة.
- **البعد الدفاعي:** الأسوار والأبواب.
- **التكيف المناخي:** مراعاة التهوية والإضاءة.

ثالثًا: المرحلة الثانية ـ من الدولة الأغلبية إلى الدولة الفاطمية (القرن 3–4هـ / 9–10م)

1- توسع العمران وتنوعه: شهدت هذه المرحلة توسعًا كبيرًا للمدن، وظهور مراكز حضرية مهمة مثل:

- تاهرت كمركز إداري وعسكري.
- فاس مركزًا علميًا ودينيًا.
- سجلماسة وتلمسان كنقاط تجارية مهمة.

وقد وصف ابن الصغير والنويري هذه المدن بدقة، مشيرين إلى تنظيمها الوظيفي المتطور.

2- مظاهر التنظيم الحضري:

- الأسوار وتوسعها مع زيادة السكان.
- ازدهار المساجد والقصور.
- نشوء أسواق متخصصة، وحمامات، وأسبلة مياه.

3- العوامل البيئية والجغرافي: أشار اليعقوبي إلى أن اختيار المواقع كان مرتبطًا بتوفر الماء، والمناخ الملائم، والطرق التجارية، والقدرة الدفاعية.

رابعًا: الخصائص العامة للتطور العمراني في المغرب الإسلامي

1- تدرّج النشأة العمرانية: انتقال العمران من نواة صغيرة (مثل القيروان) إلى مدن واسعة متعددة الوظائف.

2- التفاعل بين البيئة والموارد: اعتماد المواد المحلية، وتكييف المباني مع المناخ.

3- وحدة الهوية مع تنوع محلي: وجود هوية إسلامية واضحة في العمارة، مع اختلافات بحسب البيئة والجغرافيا.

4- التكامل بين الوظائف الدينية والاجتماعية: المدينة الإسلامية كانت تجمع المسجد الجامع، السوق، الأحياء السكنية، والمرافق العامة في منظومة واحدة.

خامسًا: القيم الفكرية والروحية للعمران المغربي

1- البعد الديني: المسجد الجامع مركز المدينة، ومؤسسة للعلم والفتوى.

2- البعد الجمالي: تناسق العمارة الدينية والمدنية يعكس رؤية جمالية إسلامية.

3- البعد الاجتماعي: المرافق العامة والأسواق وإدارة المدينة تعكس التكافل الاجتماعي والتنظيم الاقتصادي.

ويشير ابن خلدون إلى أن العمران الإسلامي مؤشر على قوة الدولة واستقرار المجتمع، ومرآة للقيم الحضارية والسياسية.

خاتمة:

يتبين من دراسة التطور العمراني في المغرب الإسلامي من الفتح إلى العهد الفاطمي أنه:

- نتاج عملية مستمرة من البناء والتوسع المنظم.
- يعكس قدرة المدن على التكيف مع البيئة والموارد.
- يُظهر ارتباطًا وثيقًا بين القيم الدينية والاجتماعية والسياسية في تشكيل العمران.

لقد جاء التطور العمراني نتيجة رؤية حضارية متكاملة، جعلت المدينة فضاءً جامعًا للدين والعلم والإدارة والاقتصاد، ومرآةً لتفاعل المجتمع المسلم مع بيئته ومعطياته التاريخية.

المحاضرة (06): مراحل وخصائص التطور العمراني في الأندلس

مدخل عام:

يُعدّ العمران الأندلسي أحد أهم الإنجازات الحضارية في تاريخ الغرب الإسلامي، ويمثّل نموذجًا فريدًا للتفاعل بين البيئة المتوسطية والروح الإسلامية، وللجمع بين خبرات المشرق وإبداع المغرب الأقصى.

ولا تقف دراسة العمران الأندلسي عند حدود المباني والقصور، بل تتجاوزها إلى فهم تطور المجتمع والدولة، وأساليب التنظيم الإداري، والعلاقات الاقتصادية، وأساليب إدارة المياه والحدائق، وما ارتبط بذلك من قيم فكرية وروحية.

وقد مرّ العمران في الأندلس بعدة مراحل، بدءًا من الفتح سنة 92هـ، وصولًا إلى عهد بني نصر وسقوط غرناطة سنة 897هـ، وكل مرحلة تركت بصمتها الواضحة في تشكيل المدن والقصور والمساجد والحدائق.

أولًا: المرحلة التأسيسية (92–138هـ)

دخل المسلمون الأندلس بقيادة طارق بن زياد وموسى بن نصير. ورغم سرعة الفتح العسكري، فإن العمران تطور تدريجيًا وفق احتياجات المجتمع الجديد. وتميزت هذه المرحلة بما يلي:

1) اعتماد المدن القائمة: استعان المسلمون بالمدن الرومانية–القوطية الكبرى مثل: طليطلة، إشبيلية، قرطبة، سرقسطة... فأعادوا توظيف شبكاتها العمرانية بما يخدم الإدارة الجديدة.

2) وضع التخطيط الأولي للمساجد الجامعة: أُنشئت النواة الأولى لعدد من المساجد الجامعة، أهمها المسجد الجامع في قرطبة الذي سيتطور لاحقًا في عهد الأمويين.

3) نشوء الضواحي (الأرباض): بدأ ظهور "الربض" كحيّ سكني أو صناعي يقع خارج الأسوار، وهو من الخصائص العمرانية الأندلسية المبكرة.

ثانيًا: مرحلة الإمارة (138–300هـ)

تمثل هذه المرحلة التأسيس الحقيقي للعمران الإسلامي في الأندلس.

1- عهد عبد الرحمن الداخل (138–172هـ): يُعدّ صقر قريش المؤسس العمراني لقرطبة، ومن أبرز إنجازاته:

- بناء المسجد الجامع وتوسعاته الأولى.
- إنشاء القنوات والسقايات في قرطبة.
- إعادة تنظيم المدينة على النموذج الدمشقي.
- تطوير القناطر والجسور، ومنها قنطرة الوادي الكبير.
- نشوء مدن جديدة مثل مرسية.

2- عهد هشام الرضا وعبد الرحمن الأوسط: شهدت هذه الفترة:

- اكتمال أجزاء واسعة من المسجد الجامع.
- توسع التعليم عبر المدارس والكتاتيب.
- ظهور حدائق تُزرع فيها النباتات الطبية لأغراض علمية.

ثالثًا: مرحلة الخلافة الأموية (300–422هـ)

وهي ذروة العمران الأندلسي في مجالات العمارة والتخطيط والحدائق.

1- عبد الرحمن الناصر (300–350هـ): يعدّ من أعظم البنّائين في تاريخ الأندلس، وأبرز أعماله:

- مدينة الزهراء.
- توسعة المسجد الجامع بقرطبة
- تطوير الموانئ والطرق ودار الصناعة البحرية

2- الحكم المستنصر (350–366هـ):

- أسس مكتبة كبرى وبيتًا للعلوم.
- أجرى توسعة كبيرة للمسجد الجامع.
- اعتمد دفاتر هندسية لتنظيم البناء.

3- الحاجب المنصور (366–399هـ):

- نهضة عمرانية ذات طابع إداري وعسكري.
- إنشاء مدينة الزاهرة.
- تعزيز الأسوار والثغور.

رابعًا: مرحلة ملوك الطوائف (422–479هـ)

شهدت هذه المرحلة:

- ازدهار عمراني كبير رغم الانقسام السياسي.
- منافسة بين الملوك في بناء المساجد الفاخرة والقصور.
- ازدهار الهندسة والزخرفة.
- تنوع الحدائق والمياه والنوافير.
- ظهور مدارس علمية خاصة.

خامسًا: مرحلة المرابطين (479–541هـ)

ترك المرابطون أثرًا واضحًا في العمران الأندلسي:

- إعادة تنظيم المساجد.
- توسيع مراكش وتأثير عمرانها في الأندلس.
- ترميم الجسور والقناطر.
- إدخال الطابع المغربي الصارم إلى بعض المدن الأندلسية.

سادسًا: مرحلة الموحدين (541–624هـ)

تميزت عمارة الموحدين بـ:

- إنشاء مبانٍ ضخمة ذات مآذن مربعة.
- انتقال الطراز الموحدي من المغرب إلى الأندلس ثم عودته إليه.
- من أشهر آثارهم في الأندلس: مئذنة خيرالدا في إشبيلية.

سابعًا: مرحلة بني نصر (629–897هـ)

آخر العصور الأندلسية، وأغناها فنًا ومعمارًا، أهم المنجزات العمرانية:

- قصر الحمراء: ذروة العمارة الأندلسية من حيث الزخارف والمياه والفراغات.
- جنة العريف: نموذج راقٍ للتنظيم المائي والحدائقي.

- تطور أنظمة الري والسدود.
- انتشار المدارس والمراكز العلمية في غرناطة.
- استمرار الخط والزخرفة حتى نهاية العصر.

ثامنًا: الخصائص العامة للعمران الأندلسي

يمكن تلخيص الخصائص الكبرى للعمران الأندلسي في النقاط الآتية:

- التكامل بين الروح والمادة.
- حضور الماء عنصرًا مركزيًا في التخطيط والزخرفة.
- التناسق بين داخل المبنى وخارجه.
- البساطة الظاهرة والفخامة الباطنة.
- التجانس مع البيئة المتوسطية.
- توظيف الضوء في القاعات والبهوّات.
- تطور الحدائق بوظيفة جمالية وفلسفية معًا.

خاتمة:

يمثل العمران الأندلسي صفحة مشرقة من صفحات الحضارة الإسلامية، جمع بين الإيمان والجمال، وبين الوظيفة والابتكار، وبين الطبيعة والإنسان.

ولا يمكن فهم هذا العمران عبر المباني وحدها، بل من خلال الإنسان الذي شيده، والقيم التي صاغته، والبيئة التي احتضنته.

وقد اتسمت التجربة الأندلسية بقدرتها على دمج المؤثرات المختلفة في إطار إسلامي راسخ، مما جعل آثارها العمرانية شاهدًا خالدًا على عبقرية حضارة لم تزل تلهم العالم حتى اليوم.

المحاضرة (07): مراحل وخصائص التطور العمراني عند الفاطميين

مدخل عام:

يمثل العمران الفاطمي أحد أهم التحولات في تاريخ المدن الإسلامية خلال العصر الوسيط، نظرًا لما اتسم به من فكر حضاري مميز، وتخطيط عمراني متطور، ومزج بين العمارة الدينية والمدنية والعسكرية.

وقد تأسست الدولة الفاطمية في المغرب الأوسط سنة 296هـ/909م، قبل أن تنتقل إلى مصر سنة 358هـ/969م، وهو انتقال أحدث تحولًا كبيرًا في مسار العمران الإسلامي.

وتشير مصادر التاريخ والجغرافيا — مثل الذخيرة السنية لابن أبي زرع، وصورة الأرض لابن حوقل، وكتابات ابن خلدون — إلى أن الفاطميين كانوا أصحاب مشروع عمراني واسع، هدفه بناء مراكز حضرية قوية تعكس مكانة الدولة وفكرها الديني والسياسي.

أولًا: السياق التاريخي والجغرافي للعمران الفاطمي

1- الموقع الجغرافي لنشأة الدول: نشأت الدولة الفاطمية أولًا في القيروان وما جاورها من المغرب الأوسط، قبل انتقالها إلى مصر وتأسيس القاهرة.

وقد مثّل موقع القاهرة على النيل عاملًا أساسيًا في:

- تخطيط المدينة.
- توفير الماء للعمارة والحدائق.
- تنشيط الزراعة والصناعات.
- توسع الأسواق والمراكز الحضرية.

2- السياق التاريخي والحضاري: أتى الفاطميون بعد الدول الرستمية والأدارسة والزيدية، فاستفادوا من التجارب العمرانية السابقة، وأضافوا إليها:

- تنظيمًا حضريًا جديدًا.
- توسعة المدن القائمة.
- إنشاء مراكز حضرية جديدة.
- أنماطًا معمارية ذات دلالة سياسية ودينية.

ويشير ابن خلدون إلى أن الفاطميين اعتمدوا على خبرات معمارية مشرقية ومغربية في آن واحد، مما أكسب عمرانهم طابعًا مركبًا.

ثانيًا: مراحل التطور العمراني عند الفاطميين

1- المرحلة الأولى: التأسيس في المغرب (296–358هـ / 909–969م)

أ) مراكز العمران الأولى: القيروان كانت نقطة الانطلاق العمراني الرئيسة، وقد أعاد الفاطميون تطويرها. ونشأت مؤسسات دينية وتعليمية تحمل الطابع الإسماعيلي.

ب) الخصائص العمرانية في هذه المرحلة:

التخطيط الهندسي المنتظم: شوارع متوازية، أسواق مركزية.

تنظيم الماء: استخدام السواقي والمساقي والآبار.

العمارة الدينية: بناء مساجد كبيرة، مثل الجامع الكبير بالقيروان بزخارف رخامية.

2- المرحلة الثانية: الانتقال إلى مصر وتأسيس القاهرة (358–372هـ / 969–983م)

أ) تأسيس القاهرة: أسسها الخليفة المعز لدين الله، وكانت مدينة مخططة وفق نموذج سياسي- ديني واضح:

- قصر الخلافة مركز المدينة.
- المسجد الجامع (الأزهر لاحقًا).
- شوارع مقسمة حسب الوظيفة (سوق الذهب، سوق الحرير...).

ب) خصائص العمارة الفاطمية في مصر:

- تنوع العمارة بين المدنية والدينية والعسكرية (حصون، قصور، مدارس، مساجد).
- التزيين والزخرفة (استخدام الرخام والفسيفساء، كثرة النقوش العربية والآيات القرآنية...).
- الاهتمام العلمي والثقافي.

ويذكر ابن أبي زرع أن المعز أمر ببناء مساجد ومكتبات تكون للعلماء والطلبة مأوى للعلم والمعرفة"

3- المرحلة الثالثة: التوسع العمراني والنهضة الاقتصادية (372–487هـ / 983–1094م)

أ) توسع المراكز الحضرية:

- تطوير الإسكندرية والفسطاط.
- إنشاء مراكز تجارية وأسواق كبرى.
- تنمية الأحياء المتخصصة بحسب الحرف.

ب) الخصائص العمرانية والفنية:

تنظيم مدني دقيق: تقسيم المدينة إلى أحياء وظيفية (تجارية–دينية–سكنية).

العمارة الدفاعية: أسوار قوية وأبراج مراقبة.

الزخارف الفنية: زخارف نباتية وهندسية، استخدام القباب والعقود.

ج) الأبعاد اللغوية والفكرية: تدل النقوش القرآنية على المباني على البعد البلاغي والجمالي؛ مثل الآية: {وجعلنا من الماء كل شيء حي" المستخدمة لربط العمارة بالحياة}.

ثالثًا: الخصائص العامة للعمران الفاطمي

1- التخطيط الحضري المنظّم: شوارع مستقيمة، أسواق مركزية، قصر الخلافة والمسجد مركزان أساسيان، توزيع دقيق للمرافق العامة.

2- العمارة الدينية والمدنية: المساجد (الأزهر، جامع الحاكم)، القصور، المدارس، الحمامات، الأسواق... وكلها تميزت بالقباب والمآذن والزخارف.

3- الأبعاد الاجتماعية: العمران لم يكن مجرد بناء، بل كان:

- تنظيمًا للمجتمع الحضري.
- توظيفًا للمساجد والمدارس في الحياة اليومية.
- ربطًا بين الاقتصاد والحياة العمرانية.

4- الأبعاد البيئية: اهتمام كبير بالماء عبر: القنوات، السواقي، الحدائق، الأحواض... كما وصف ابن حوقل القاهرة بأنها مدينة النيل المزدهرة.

5- الموروث اللغوي والجمالي: النقوش الزخرفية تعكس جماليات اللغة العربية، استخدام البلاغة القرآنية، دمج النصوص في العمارة.

خاتمة:

تكشف التجربة العمرانية الفاطمية عن قدرة الدولة على الجمع بين التخطيط الحضري المتقدم، والعمارة الدينية الرفيعة، والتنظيم الاجتماعي المتماسك.

فالعمران عند الفاطميين كان مشروع دولة كاملة، يجمع بين الوظيفة والجمال، وبين السياسة والدين، وبين البيئة والاقتصاد.

ويمثل هذا العمران مرحلة مهمة لفهم التطور العمراني في الغرب الإسلامي وانتقاله من المغرب إلى مصر، وتأثيره لاحقًا في العمران الأيوبي والمملوكي.

المحاضرة (08): مراحل وخصائص التطوّر العمراني عند الزيريين والمرابطين والحماديين

مدخل عام:

يمثل العصر الممتد من حكم الزيريين والمرابطين والحماديين مرحلة محورية في تاريخ العمران بالمغرب الإسلامي؛ فقد شهدت هذه الفترة ظهور نماذج عمرانية متباينة ومتأثرة بالبيئة الجغرافية والظروف السياسية والدينية.

وقد ساهمت هذه الدول الثلاث في وضع بصمتها الخاصة على المدن، والمساجد، والقصور، والأسواق، مما يشكل جزءًا أساسيًا من فهم التطوّر الحضري في المغرب الأوسط والمغرب الأقصى خلال القرنين الرابع والخامس والسادس الهجريين.

أولًا: العمران الزيري (296–403هـ / 911–1012م)

1- السياق التاريخي والجغرافي: نشأ الزيريون في المغرب الأوسط عقب انحسار الحكم الفاطمي عن المنطقة، واتخذوا القيروان مركزًا رئيسًا لحكمهم.

وقد استفادوا من الإرث العمراني القائم، إضافة إلى موقعهم في السهول الخصبة التي سمحت بنشاط اقتصادي قوي.

2- خصائص العمران الزيري:

أ) التخطيط الحضري:

- إعادة تنظيم المدن القائمة مثل القيروان.
- تحسين الشوارع والأسواق والمرافق الدينية.

ب) العمارة الدينية والمدنية:

- بناء المساجد التي تُستخدم للتعليم والوعظ
- إنشاء قصور ومساكن للنخب الحاكمة.

ج) التوجه الاجتماعي:

- دعم المدارس والمكتبات.
- تشجيع العلماء والفقهاء، مما جعل العمران مرتبطًا بالحياة العلمية.

د) البعد الديني واللغوي: نقوش المساجد تضمنت آيات قرآنية وأدعية، تعكس الفكر الزيدي وتأثيره في العمارة.

ثانيًا: العمران المرابطي (448–541هـ / 1056–1146م)

1- السياق التاريخي والجغرافي: نشأ المرابطون في صحراء المغرب الأقصى، ثم توسعوا شمالًا إلى المغرب الأوسط وجنوب الأندلس.

أصبحت مراكش عاصمتهم، وتمثل أحد أبرز المراكز الحضرية في تاريخ المغرب الإسلامي.

وقد فرضت البيئة الصحراوية سماتٍ خاصة على العمارة مثل التحصينات والأسوار.

2- مراحل التطور العمراني المرابطي:

أ) تأسيس مراكش:

- مدينة مخططة ذات أسوار عالية وأبواب ضخمة.
- أسواق مركزية، وقصور، ومساكن منظمة.
- الجامع الكبير من أهم نماذج العمارة المرابطية الأولى.

ب) التوسع العمراني:

- تنظيم الشوارع بحسب الوظائف (تجارية–سكنية–دينية).
- إنشاء حمامات ومدارس وقصور وأسواق متخصصة.
- إدارة متقدمة للمياه عبر السواقي والآبار.

ج) الخصائص الفنية والمعمارية:

- العمارة العسكرية (أسوار قوية، أبراج دفاعية، حصون...).
- كثرة النقوش الهندسية والزخرفة النباتية.
- استخدام الحجر والطين والرخام.
- نقوش قرآنية تعكس الالتزام بالعقيدة السنية.

ثالثًا: العمران الحمادي (444–544هـ / 1052–1149م)

1- السياق التاريخي والجغرافي: حكم الحماديون شرق الجزائر وغرب تونس، واتخذوا من قسنطينة وتلمسان مراكز سياسية لهم، مع مدن جبلية تُعرف بعمارتها الدفاعية.

وقد فرضت التضاريس الجبلية نمطًا عمرانيًا خاصًا يتميز بالتدرج والتحصين.

2- خصائص العمران الحمادي:

أ) التخطيط الحضري:

- البناء وفق التدرج الطبوغرافي (المساكن على التلال، الأسواق في السفح، المساجد في القمم).
- مراعاة أمن المدينة وقدرتها على الصمود.

ب) العمارة الدينية والمدنية:

- المساجد بسيطة لكنها ذات روحانية واضحة.
- القصور مبنية وفق متطلبات البيئة الجبلية.

ج) الجانب الثقافي والاجتماعي:

- دعم المدارس والمكتبات وإدماجها ضمن التخطيط الحضري.
- اعتماد اللغة العربية في النقوش والوثائق.

رابعًا: الخصائص العامة للعمران عند الزيريين والمرابطين والحماديين

1- التخطيط الحضري:

- مدن منظمة وفق أسس هندسية واضحة.
- توزيع متوازن بين السكن، الأسواق، المؤسسات الدينية، والمدارس.

2- العمارة الدينية والمدنية:

- مساجد، مدارس، قلاع، قصور، أسواق.
- زخارف هندسية ونباتية، ونقوش قرآنية.

3- الجانب الاجتماعي والاقتصادي:

- العمران مرتبط بالنشاط التجاري والحرفي.
- دعم التعليم وإقامة المرافق الاجتماعية.

4- التكيف البيئي والجغرافي:

- استخدام مواد البناء المحلية.
- حلول عمرانية مناسبة للسهول والصحراء والجبال.
- تنظيم الموارد المائية (سواقي، آبار، قنوات).

5- الجانب الديني واللغوي:

- النقوش القرآنية والأدعية عنصر أساسي في الزخرفة.
- استخدام اللغة العربية ببيان وبلاغة في الكتابات المعمارية.

خاتمة:

يكشف اختبار التطوّر العمراني عند الزيريين والمرابطين والحماديين عن تنوع كبير في نماذج العمران بالمغرب الإسلامي، نتج عن اختلاف البيئات الجغرافية والظروف السياسية والخيارات العقدية.

ومع ذلك، حافظت هذه التجارب جميعها على إطارٍ حضاري مشترك، يتمثل في: مركزية المسجد، تنظيم الأسواق، الارتباط القوي بالعلم والتعليم، والتكيف العميق مع البيئة.

ويمثل هذا العصر مرحلة مهمة لفهم تطور المدن في الجزائر والمغرب والأندلس، وما تركه من أثرٍ في العمارة الإسلامية اللاحقة.

المحاضرة (09): مراحل وخصائص التطور العمراني عند الموحدين

مدخل عام:

يُعدّ العمران الموحدي مرحلة مركزية في تاريخ الغرب الإسلامي والأندلس، إذ شكل انتقالًا حضاريًا كبيرًا بعد انهيار الدولة المرابطية.

وقد أسس الموحدون، بقيادة محمد بن تومرت ثم عبد المؤمن بن علي، نموذجًا عمرانيًا متماسكًا يجمع بين الفكر الإصلاحي الديني والتنظيم السياسي، ويعتمد على التخطيط الهندسي الواضح والعمارة الدينية والمدنية والعسكرية المتطورة.

امتد نفوذهم من المغرب الأقصى إلى المغرب الأوسط وشمال إفريقيا، ووصل إلى مدن أندلسية كبرى، مما جعل تأثيرهم العمراني واسعًا وعميقًا في آن واحد.

أولًا: السياق التاريخي والجغرافي للعمران الموحدي

1- السياق التاريخي: نشأت الحركة الموحدية كحركة إصلاحية دينية وسياسية بعد تراجع الدولة المرابطية.

تمكن عبد المؤمن من توحيد المغرب الأقصى والأوسط، ثم التوجه نحو الأندلس.

تميز مشروعهم العمراني بالترابط بين الدين والسياسة والتنظيم الحضري.

2- الموقع الجغرافي وانتشار المراكز الحضرية: تركزت المدن الأساسية للموحدين في: مراكش، فاس، تلمسان، سبتة، القيروان، وعدد من المدن الأندلسية لاحقًا.

وقد أدّى تنوع الجغرافيا (سهول – جبال – صحاري) إلى تشكيل عمراني متكامل يراعي اختلاف البيئات واحتياجاتها.

ثانيًا: المرحلة الأولى - التأسيس وإعادة تنظيم المدن (541–557هـ / 1146–1162م)

1- إعادة تأهيل المدن الكبرى:

أ) مراكش: أصبحت العاصمة السياسية والإدارية، وتميزت بـ:

- توسعة المجال الحضري.
- بناء أسواق مركزية.
- تنظيم الشوارع والمحاور العمرانية.
- تطوير المؤسسات الدينية والمعمارية.

ب) فاس والقيروان: تركز النشاط العمراني على تطوير المدارس والمساجد والمؤسسات العلمية.

2- الخصائص العمرانية لهذه المرحلة:

تنظيم مدني واضح: شوارع واسعة، أسواق مركزية، تقسيم وظيفي للأحياء.

العمارة الدينية: بناء مساجد كبرى أبرزها جامع الكتبية، مع زخارف هندسية ونباتية.

نقوش معمارية عربية: تعكس البلاغة القرآنية وقيم الفكر التوحيدي.

3- الجانب الاجتماعي والثقافي: تأسيس مدارس كبرى، تشجيع العلماء والفقهاء، ربط العمران بالنهضة العلمية.

ثالثًا: المرحلة الثانية - التوسع العمراني وإنشاء المدن الجديدة (557–600هـ / 1162–1203م)

1- إنشاء مدن وحصون جديدة:

- تأسيس مراكز حضرية على طول الحدود الغربية والجنوبية،
- إنشاء القصبات والمدارس المركزية،
- تعزيز البنية الدفاعية للمدن.

2- الخصائص العمرانية:

- الجمع بين الوظائف العسكرية والمدنية والدينية في المدينة الواحدة.
- استخدام المواد المحلية (الحجر – الطين – الخشب) بما يناسب البيئة.
- زخارف هندسية دقيقة، مع استخدام الآيات والنقوش العربية.

3- الجانب الديني والفكري:

- انتشار المدارس التي تدرس العلوم الشرعية والفقه المالكي.
- التأكيد على الفكر التوحيدي في النقوش والمباني.
- تطور النصوص المعمارية ذات الطابع الديني.

رابعًا: المرحلة الثالثة ـ عصر النهضة العمرانية والازدهار الاقتصادي (600–660هـ / 1203–1260م)

1- التوسع الحضري في الأندلس:

- تطوير المدن مثل غرناطة، إشبيلية، ومرسية.
- بناء أسواق متخصصة، ومساجد، ومدارس.

2- الخصائص المعمارية والفنية:

- المزج بين القوة العسكرية والجمال الفني.
- زخارف هندسية ونباتية دقيقة.
- نقوش قرآنية ذات صبغة بلاغية.

3- الجانب الاجتماعي والاقتصادي:

- تنظيم المدن أدى إلى انتعاش الأسواق والحرف.
- تشجيع الصناعات (الفخار، النسيج، الخشب).
- دعم المؤسسات العلمية والتعليمية.

خامسًا: الخصائص العامة للعمران الموحدي

1- التخطيط الحضري: شوارع واسعة، أحياء وظيفية (سكنية – تجارية – دينية)، أسواق مركزية، تنظيم هندسي واضح للمدينة.

2- العمارة الدينية والمدنية: المساجد الكبرى (مثل الكتبية)، المدارس والمكتبات، القصور الرسمية، الأسوار والحمامات العامة، زخارف هندسية وبلاغية مستوحاة من القرآن.

3- البعد الاجتماعي: العمران يعكس مجتمعًا موحديًا منظمًا ومتكاملاً، دعم التعليم والتجارة، ترابط بين الحياة اليومية والنظام الديني.

4- التكيف البيئي والجغرافي: مراعاة تضاريس الجبال والسهول والصحاري، بناء شبكات ماء وقنوات وسواقي.

5- البعد الديني واللغوي: حضور النقوش القرآنية بشكل واسع، التأكيد على الفكر الإصلاحي التوحيدي، توظيف البلاغة العربية في الكتابة المعمارية.

خاتمة:

تكشف التجربة العمرانية للموحدين عن مشروع حضاري متكامل ارتبط بالدين والسياسة والتنظيم الاجتماعي.

فقد تمكن الموحدون من: إعادة تنظيم المدن الكبرى، تأسيس مدن جديدة، تطوير العمارة الدينية والمدنية، تعزيز البنية الاقتصادية والتعليمية، وإرساء تخطيط حضري كان له تأثير طويل على المغرب والأندلس.

ويمثل العمران الموحدي مرحلة من النضج الحضاري في الغرب الإسلامي، تركت آثارًا معمارية وإنسانية لا تزال شاهدة على قوة الدولة وفكرها.

المحاضرة (10): مراحل وخصائص التطور العمراني عند الزيانيين، المرينيين، والحفصيين

مدخل عام:

تأتي دراسة التطوّر العمراني في عهد الزيانيين والمرينيين والحفصيين مكمّلة للمسار التاريخي للعمران في المغرب الإسلامي الوسيط، بعد تجارب الموحدين والزيريين والمرابطين والحماديين.

وقد شهدت هذه المرحلة تنوعًا جغرافيًا وسياسيًا واسعًا، أثّر على التخطيط الحضري والعمارة، وأسهم في صياغة نموذج عمراني متجدد يجمع بين الأصالة الإسلامية ومتطلبات البيئة الجبلية والسهول والسواحل

أولًا: العمران الزياني (627–784هـ / 1230–1382م)

1- السياق التاريخي والجغرافي: نشأ الزيانيون بعد انهيار الدولة الموحدية في المغرب الأوسط، واتخذوا من تلمسان مركزًا رئيسيًا لحكمهم، إضافة إلى مدن مثل مستغانم ومناطق الأطلس.

وقد فرضت التضاريس الجبلية على العمران الزياني نمطًا خاصًا يقوم على التدرج واستغلال المرتفعات للدفاع.

2- خصائص العمران الزياني:

أ) التخطيط الحضري:

- المدن تتوزع بشكل متدرج على المرتفعات.
- شوارع داخلية متدرجة ومرتبطة بمراكز دينية وتجارية.
- استخدام المرتفعات كأسوار طبيعية للدفاع.

ب) العمارة الدينية والمدنية:

- مساجد متوسطة الحجم مزينة بنقوش نباتية وقرآنية.
- قصور مكيفة مع البيئة الجبلية، مزودة بصهاريج ومخازن.

ج) البعد الاجتماعي والثقافي:

- دعم المدارس والفقه المالكي.
- الاهتمام بالثقافة العربية والنقوش ذات الطابع البلاغي.

ثانيًا: العمران المريني (658–832هـ / 1260–1429م)

1- السياق التاريخي والجغرافي: برز المرينيون بعد تراجع النفوذ الزياني في بعض المناطق، وسيطروا على وسط المغرب وشماله، بما في ذلك فاس، مراكش، وتطوان.

وقد أتاحت لهم سهول المغرب وواجهته البحرية فرصًا كبيرة للتخطيط العمراني المتطور.

2- مراحل التطور العمراني المريني

أ) تأسيس المدن الجديدة:

- إنشاء فاس الجديدة (فاس العالي) بتخطيط مركزي حديث.
- تطوير مراكش وإعادة تنظيم قصبتها وقصورها.

ب) الخصائص المعمارية:

- الجمع بين العمارة العسكرية والمدنية والدينية.
- استخدام الحجر والطين والخشب.
- زخارف هندسية ونقوش قرآنية وبلاغية.
- بناء مدارس كبرى أصبحت مراكز لنشر العلم والفقه المالكي.

ج) البعد الاجتماعي والاقتصادي:

- المدن المرينية مراكز نشطة للتجارة والصناعة.
- دعم الأسواق الحرفية والموانئ التجارية.
- تشجيع التعليم والعلوم الإسلامية.

ثالثًا: العمران الحفصي (612–709هـ / 1215–1309م)

1- السياق التاريخي والجغرافي: الحفصيون حكموا تونس وشرقي الجزائر بعد تفكك الموحدين، وورثوا تجربة عمرانية غنية من الفاطميين والزيريين والحماديين.

وأسهم الموقع الساحلي لمدن مثل تونس وسوسة والمنستير في تطوير موانئ ومراكز تجارية حضرية.

2- خصائص العمران الحفصي:

أ) التخطيط الحضري:

- مدن ساحلية بخطط تعتمد الأسواق المركزية.
- أسوار قوية تحيط بالمدن للحماية من الهجمات البحرية.

ب) العمارة الدينية والمدنية:

- تطوير المساجد الكبرى مثل جامع الزيتونة في القيروان وتونس.
- بناء المدارس والمكتبات، ونشر الفقه المالكي.

ج) البعد الاقتصادي والاجتماعي:

- الموانئ البحرية محور أساسي في النشاط التجاري.
- تطور الصناعات والحرف المحلية.
- تكامل بين الأسواق والحياة الاجتماعية في المدن.

رابعًا: الخصائص العامة للعمران الزياني والمريني والحفصي

1- التخطيط الحضري:

- مدن منظمة وفق أسس هندسية واضحة.
- أسواق مركزية، أحياء سكنية، مراكز دينية، ومدارس.

2- العمارة الدينية والمدنية:

- مساجد ومدارس وقصور وأسوار وحمامات.
- زخارف هندسية ونباتية وقرآنية.

3- البعد الاجتماعي والثقافي:

- العمران مرتبط بالحياة العلمية والدينية.
- اهتمام بالفقه المالكي ونشر الثقافة الإسلامية.

4- البعد البيئي والجغرافي:

- تكيف مع الجبال (الزيانيون)،
- السهول والموانئ (المرينيون والحفصيون)،
- إدارة ذكية للموارد المائية.

5- البعد الديني واللغوي:

- النقوش القرآنية والأدعية عنصر أساسي في الزخرفة.
- حضور البلاغة العربية في الكتابات المعمارية.

خاتمة:

يظهر من خلال دراسة العمران في عهد الزيانيين والمرينيين والحفصيين أن المغرب الإسلامي الوسيط حافظ على روح العمران الإسلامي القائمة على: مركزية المسجد، تنظيم الأسواق، بناء المدارس، دعم الحياة الاقتصادية، التكامل بين البيئة والعمارة، مع تطوير فنون جديدة وتأثر متبادل بين المناطق الجبلية والساحلية والسهول.

ويمثل هذا العصر أحد أهم الفصول في تاريخ المدن الإسلامية، بما تركه من آثار عمرانية وثقافية ما زالت شاهدة على تميز التجربة المغربية.

المحاضرة (11): تأثير الكوارث الطبيعية على العمران في الغرب الإسلامي

مدخل عام:

يشكل تفاعل العمران مع البيئة الطبيعية في المغرب والأندلس أحد أهم مفاتيح فهم تجارب المدن الإسلامية في التاريخ الوسيط. فالعمران لا يمثل مجرد مبانٍ وموادّ، بل هو نتاج علاقة معقدة بين الإنسان وبيئته، تتأثر بعوامل طبيعية كالأعاصير والفيضانات والزلازل والجفاف والانهيارات الأرضية. ويُظهر التاريخ المغربي والأندلسي كيف واجهت المدن الإسلامية هذه الظواهر، وكيف طوّرت أساليب تخطيط وبناء تستجيب للمتغيرات البيئية وتحديات الطبيعة.

أولًا: الإطار المفاهيمي للظواهر الطبيعية وتأثيرها على العمران

1- مفهوم الظواهر الطبيعية: تشمل الظواهر الطبيعية الأحداث الجيولوجية أو الهيدرولوجية أو المناخية، مثل: الزلازل، الفيضانات، الأعاصير، الجفاف، الانهيارات الأرضية.

ولا تتحول هذه الظواهر إلى كوارث إلا عندما تتفاعل مع هشاشة البنية العمرانية أو سوء التخطيط أو ضعف الاستعداد الاجتماعي.

2- العلاقة بين الظواهر الطبيعية والتخطيط العمراني: تتجلى العلاقة في عدة ممارسات تنظيمية اعتمدتها المدن الإسلامية:

اختيار المواقع: تجنّب المناطق المعرضة للفيضانات أو الانهيارات، وتفضيل الهضاب والمواقع المرتفعة.

مواد البناء: استخدام الحجر الصلب في المناطق المعرّضة للزلازل، ورفع المباني على دعامات في المناطق المعرّضة للمياه.

توزيع السكان: توجيه السكن إلى المناطق المرتفعة، وتوزيع الأسواق والبنى التحتية بما يضمن السلامة.

إدارة مياه المطر: عبر القنوات والبرك والسدود لتصريف مياه الأمطار والحد من الفيضانات.

ثانيًا: تأثير الظواهر الطبيعية على العمران في المغرب الإسلامي

1- الزلازل: أشار ابن أبي زرع في الذخيرة السنية إلى الزلازل التي ضربت فاس ومراكش، وما أحدثته من تغييرات عمرانية.

آثار الزلازل على العمران:

- تعزيز القواعد الإنشائية للمباني.
- استخدام الحجر الصلب بدل المواد الطينية في الأبنية الدينية والرسمية.
- إعادة بناء الأسوار والأحياء المتضررة.

وقد أدت زلازل فاس إلى صدور تشريعات تفرض معايير أكثر صرامة للبناء، كما تذكر المصادر التاريخية.

كما يبين ابن خلدون في العبر أن حكومات المغرب الإسلامي كانت تُعيد النظر في توزيع المباني بعد زلازل قوية لضمان سلامة المراكز الحضرية.

2- الفيضانات: وثّق البكري في المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب فيضانات أتلفت أجزاء من المدن الواقعة على أودية مثل وادي سبو ووادي ملوية.

التدابير العمرانية للتعامل مع الفيضانات:

- بناء السدود والقنوات لتصريف مياه الأمطار.
- رفع مستوى المباني والأسواق لمنع تسرب المياه.
- إعادة توزيع السكان بعيدًا عن الأحياء المنخفضة.
- تطوير نظام صرف فعال داخل المدن.

الفكر الديني شكّل عنصرًا مهمًا في تعزيز التضامن المجتمعي بعد الكوارث، حيث كانت الظواهر تُفهم غالبًا باعتبارها ابتلاءً يدعو إلى الإصلاح وإعادة البناء.

3- الجفاف والأعاصير:

أ) الجفاف: أثر بشكل غير مباشر عبر: هجرة السكان من المناطق الزراعية المتضررة، نقص الموارد المؤدية إلى تراجع بعض المراكز الحضرية.

ب) الأعاصير: ضربت المناطق الساحلية، فأدت إلى: بناء حصون بحرية قوية، تعزيز منشآت الصرف في الأحياء الساحلية، تكييف العمارة لمواجهة الرياح القوية.

ثالثًا: تأثير الظواهر الطبيعية على العمران في الأندلس

1- التدابير العمرانية:

- إنشاء أنظمة ري وقنوات وسواقي لحماية الأراضي والمناطق السكنية.
- بناء الأساسات العميقة للمباني الرسمية والدينية.
- نقل الأحياء من مناطق منخفضة إلى الهضاب المرتفعة بعد حوادث متكررة.
- شهد قصر الحمراء تعديلات هيكلية بعد الزلازل لضمان متانة الجدران والأساسات.

2- البعد الفكري والديني: اعتُبرت الظواهر الطبيعية حافزًا لإعادة التفكير في البنية العمرانية، وتعزيز التعاون الاجتماعي في إعادة إعمار المدن.

رابعًا: ما ورد في مصادر المؤرخين والجغرافيين حول أثر الكوارث الطبيعية

اعتمدت المصادر المغاربية والأندلسية على منهج وصفي دقيق في تسجيل الظواهر الطبيعية وتأثيرها على المدن:

ابن الرامي في الإعلان بأحكام البنيان: يؤكد أهمية اختيار المواقع الصلبة للبناء.

ابن الصغير في أخبار الأئمة الرستميين: يوثق الإجراءات الحكومية بعد الكوارث

اليعقوبي والنويري: يعرضان أوصاف المدن وتأثرها بالأمطار والسيول.

ابن القنفذ: يبرز ضرورة الموازنة بين الزراعة والعمران لمواجهة الجفاف.

ابن خلدون في العبر والمقدمة: يحلل أثر الكوارث على العمران والديمغرافيا ومسار نشوء المدن أو ضعفها.

خاتمة:

يتضح من خلال تتبع أثر الكوارث الطبيعية في المغرب والأندلس أن العمران الإسلامي لم يكن مجرد نشاط هندسي، بل كان تجربة اجتماعية ودينية واقتصادية متكاملة. فقد أثّرت الظواهر الطبيعية في اختيار المواقع وتخطيط المدن ومواد البناء، وأسهمت في تطوير أنظمة الري والصرف والحماية، وفي إعادة تشكيل الأحياء الحضرية. كما أظهرت المصادر التاريخية وعيًا حضاريًا عميقًا بأهمية التفاعل الإيجابي مع البيئة، بما يعكس قدرة المجتمع الإسلامي في الغرب على التكيف والصمود وإعادة البناء.

المحاضرة (12): الحروب والهجرات وأثرها على المدن في الغرب الإسلامي

مدخل عام:

يُعدّ موضوع الحروب والهجرات وأثرها على العمران من المحاور الأساسية في دراسة تاريخ المدن في الغرب الإسلامي؛ إذ إن التحولات العمرانية الكبرى لم تكن نتيجة التطور الطبيعي وحده، بل كانت في كثير من الحالات نتاجًا مباشرًا لصراعات سياسية وعسكرية، وتحركات سكانية غيرت البنية الحضرية ووظائفها.

وقد أشار ابن خلدون في المقدمة إلى أن العمران تابع للحياة السياسية والاجتماعية، وأن تغيّر الدول يؤدي بالضرورة إلى تغيّر أحوال العمران، وهو أصل نظري مهم لفهم دينامية المدن في المغرب والأندلس.

أولًا: الإطار المفاهيمي للمدينة بين السلم والحرب

1- مفهوم المدينة الحصينة في التراث الإسلامي: المدينة في الفكر الإسلامي كيان مركّب يتجاوز حدود البناء ليشمل الوظائف الدينية والعلمية والدفاعية والاقتصادية.

فهي تضم الجامع، المدرسة، السوق، والأسوار التي تُعد جزءًا من بنيتها ووظيفتها.

وقد وصف البكري مدينة سبتة بأنها «حصينة البنيان، منيعة الأسوار»، وهو وصف يبرز العلاقة بين العمران والتحصين.

2- أثر الحرب في النظرية العمرانية عند ابن الرامي: يربط ابن الرامي في الإعلان بأحكام البنيان بين العمران وأمن السكان، ويرى أن ضعف البناء يهدد حياة الناس، وهو أساس يفسر التغيرات العمرانية التي تقع بعد الحروب، سواء عبر إعادة البناء أو تحصين المنشآت.

3- فكرة الدورات العمرانية في الفكر الخلدوني: يرى ابن خلدون أن العمران يمر بمراحل: نشوء، قوة، ضعف، خراب، ثم تجدد.

والحروب والهجرات عنصران أساسيان يسهمان في مرحلتي الضعف والخراب، عبر تأثيرهما على السكان، والوظائف الاقتصادية، والبنية الحضرية.

ثانيًا: أثر الحروب الكبرى على المدن في الغرب الإسلامي

1- الصراعات الداخلية بين القبائل وتحوّل المراكز الحضرية:

أ) صراع زناتة وصنهاجة: أدى إلى تغير مراكز الحكم وتراجع بعضها ازدهارًا.

ومن ذلك ما وقع لمدينة تاهرت التي كانت مركزًا حضريًا مهمًا، ثم تراجع عمرانها بسبب الاضطرابات.

وقد أشار ابن الصغير في أخبار الأئمة الرستميين إلى أن اضطراب أحوال الناس أثّر مباشرة على وفود السكان والتجارة.

ب) انعكاس أثر الحروب القبلية على العمران:

- تحوّل طرق التجارة.
- انتقال العلماء والفقهاء إلى مدن أكثر أمنًا.
- تغير الوظائف الاقتصادية للأسواق والمدن.

2- الفتوحات الأولى وأثرها على تشكيل المدن:

أ) تأسيس القيروان: جاء تأسيس القيروان نتيجة مباشرة لحاجات الفتح العسكري؛ فقد أنشأها عقبة بن نافع لتكون قاعدة عسكرية وإدارية.

اهتمت المصادر كتاريخ ابن عذاري وابن خلدون بتفصيل تخطيطها الأول: دار الإمارة، المسجد الجامع، الفساطيط.

ب) نشوء الرباطات الساحلية: مثل رباط المنستير، وهي مراكز مرتبطة بالثغور البحرية، أصبحت لاحقًا نويات حضرية.

وقد أشار إليها البكري واليعقوبي ضمن المراكز التي تطورت من منشآت عسكرية إلى مدن صغيرة.

3- سقوط الدول وتحوّل المدن:

أ) سقوط الدولة الرستمية (296هـ): أدى إلى خراب مدينة تاهرت واندثار كثير من عمرانها، كما يذكر ابن خلدون في العبر عند حديثه عن انقطاع العمران بعد انهيار الدول.

ب) الصراع الفاطمي-الزيري-الأموي: كان له أثر كبير في تخريب مدن وبناء أخرى جديدة، مثل تأسيس المهدية التي وصفها ابن حوقل بأنها ذات سور بحري وبرّي محكم يعكس طبيعتها العسكرية.

4- الحروب البحرية مع القوى اللاتينية: أدت إلى:

- تعزيز تحصينات المدن الساحلية.
- بناء أبراج للمراقبة.
- انكماش العمران في بعض المرافئ لأسباب أمنية.

وذكر البكري أن أهل سبتة بنوا أبراجًا كثيرة بسبب تهديدات الأساطيل اللاتينية.

5- حروب الموحدين والمرابطين وأثرها الحضري:

أ) تغيّر العواصم: تنقلت مراكز الحكم بين مراكش وفاس وتلمسان، ما أدى إلى تغيرات عمرانية.

ب) انتقال العلماء والتجار: أثر انتقال العلماء كما يذكر ابن القنفذ في الفارسية في تغيير موازين النشاط العلمي داخل المدن، وإعادة توزيع المؤسسات التعليمية.

ثالثًا: الهجرات الداخلية وأثرها على المدن

1- هجرات البربر داخل المغرب الإسلامي: شملت قبائل زناتة وكتامة ولمتونة وغيرها، وكانت نتيجة ظروف سياسية واقتصادية.

أثر الهجرات:

- نشوء مراكز استيطانية جديدة.
- انتقال الصناعات والحرف.
- تطور أنماط السكن من الخيام إلى الأحياء المنظمة.

2- هجرة العلماء والتجار:

أ) أثر هجرة العلماء: تنشيط الحركة العلمية، ظهور مدارس جديدة، توسعة المساجد لاستيعاب الطلبة.

ب) أثر هجرة التجار: نشوء أسواق متخصصة، تغير الوظائف الاقتصادية للمراكز الحضرية.

3- الهجرات الناتجة عن القحط والأزمات: أدت إلى: ظهور أحياء جديدة لاستيعاب الوافدين، انتقال الثقل التجاري من مدن داخلية إلى مدن ساحلية.

ووثّق ابن خلدون انتقال قبائل بأكملها نحو السواحل نتيجة الأزمات الاقتصادية.

رابعًا: أثر الحروب والهجرات على وظائف المدن وبنيتها

1- التحصين وإعادة التحصين: بناء أسوار جديدة، تعلية الأسوار القديمة، إحياء الرباطات والقلاع.

2- تغيّر النسيج الحضري الداخلي: اتساع الأحياء الحرفية المرتبطة بالحرب، نقل الأسواق إلى مناطق أكثر أمنًا، نشوء أحياء عسكرية.

3- تغيّر وظائف المدن: تحولت بعض المدن من مراكز علمية وتجارية إلى ثغور عسكرية، مثل تلمسان في بعض فترات الصراع الزناتي.

4- التدهور العمراني: ارتبط بتراجع الأمن وارتفاع الضرائب ونزوح السكان.

وقد لخّص ابن خلدون ذلك بقوله إن "الخراب يلحق العمران إذا كثرت الحروب"، في إشارة مباشرة لأثر القتال على المدن.

خاتمة:

يتضح من دراسة الحروب والهجرات في الغرب الإسلامي أن العمران كان شديد الحساسية للمتغيرات السياسية والعسكرية. فقد أثرت الحروب في اختيار مواقع المدن، وفي توسعتها أو انكماشها، وفي وظائفها الاقتصادية والدينية. كما لعبت الهجرات دورًا مهمًا في إعادة تشكيل النسيج الحضري، وانتقال مراكز النشاط العلمي والتجاري. ويؤكد ذلك أن العمران في المغرب والأندلس كان منظومة ديناميكية متغيرة، ترتبط بقوة الدولة واستقرار المجتمع وتفاعل الإنسان مع بيئته التاريخية والجغرافية.

المحاضرة (13): هجرات العرب الهلالية وأثرها على المدن في الغرب الإسلامي

مدخل عام:

تمثّل الهجرات العربية الهلالية إحدى أهم التحوّلات الديموغرافية والاجتماعية والسياسية في الغرب الإسلامي خلال القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي. وقد امتد أثرها ليشمل: البنية السكانية، التنظيم القبلي، الأوضاع الاقتصادية، ثم العمران ووظائف المدن.

وقد أفرد لها ابن خلدون مساحة واسعة في العبر والمقدمة، وعدّها من الأحداث التي غيّرت وجه المغرب الأوسط والأدنى، خاصة في علاقات البادية بالحاضرة، واستقرار الزراعة والرعي، وتحولات المراكز الحضرية.

تهدف هذه المحاضرة إلى دراسة الأثر العمراني والحضري للهجرات الهلالية، بعيدًا عن التفصيلات الحربية العامة، ودون التطرق لهجرات الأندلسيين التي تُخصَّص لها محاضرة مستقلة.

أولًا: الإطار التاريخي والجغرافي لهجرات الهلاليين

1- أصل القبائل الهلالية ومسار الهجرة: ينتمي الهلاليون إلى قبائل بني هلال، ومعهم بنو سُليم وغيرها من بطون العرب العدنانية.

كانت مواطنهم الأولى في نجد والحجاز، ثم انتقلوا تدريجيًا إلى صعيد مصر.

دخلوا إفريقية (بلاد المغرب الأدنى والأوسط) في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، في سياق سياسي معقّد ارتبط بالصراع بين الفاطميين والزيريين.

وقد وصفهم ابن خلدون بأنهم «أحياء عظيمة كثيرة العدد، اشتد بهم البأس»، وهو ما يبين ثقلهم العسكري والسكاني.

2- الجغرافيا الحاضنة لمسار الهجرة: لم تكن الهجرة دفعة واحدة، بل جاءت في موجات متتابعة، واستقر الهلاليون في:

- وسط إفريقية (الوادي، الزاب).
- السهول الساحلية الخصبة.
- الهضاب العليا.
- أطراف الصحراء الشمالية.

وساهم اتساع السهول ووفرة المراعي في جذب البداوة الهلالية إلى هذه المناطق، مع ميل واضح إلى الفضاءات المفتوحة لا الثغور البحرية.

3- الفرق بين الهجرة الهلالية والفتح الإسلامي:

الفتح الإسلامي: حركة عسكرية–سياسية منظمة تقيم دولة، وتؤسس مدنًا جديدة (القيروان مثالًا).

الهجرة الهلالية: حركة قبلية ذات طابع اجتماعي–اقتصادي، تقوم على الانتقال الجماعي للرعاة والقبائل طلبًا للمراعي والقوة.

وبالتالي يختلف الأثر العمراني للهجرة القبلية عن أثر الفتح؛ فالفتح ينتج مدينة مؤسَّسة رسميًا، بينما تنتج الهجرة تحولات في المدن القائمة ومسارات جديدة للاستقرار.

ثانيًا: أثر الهجرات الهلالية على المدن في الغرب الإسلامي

1- انتقال نمط العيش البدوي إلى أطراف المدن: أدّى دخول القبائل الهلالية إلى:

- انتشار ثقافة الخيام والتنقل حول المدن.
- اختلاط البدو بأهل الحضر.
- تأثر بعض المدن بانكماشها نحو الداخل بسبب ضعف الأمن في محيطها.

وتغيّر استعمال الأرض الزراعية في مناطق عديدة نتيجة توسُّع الرعي على حساب الزراعة، وهو ما سجله ابن خلدون عند حديثه عن خراب الضياع وانتقاض العمران في إفريقية.

2- التحول الاقتصادي في المدن التجارية: كانت المدن الحضرية يعتمد اقتصادها على: الزراعة المحيطة بها، الأسواق الأسبوعية، ارتباط القرى بها.

ومع تحوّل جزء كبير من الأراضي إلى مراعي ضعفت موارد بعض المدن الزراعية مثل القيروان، وتقلّصت موارد المهدية، وحدثت تحولات في طرق التجارة.

ظهرت أنماط جديدة من التجارة المرتبطة بالإبل والمنتجات البدوية.

3- الآثار السياسية على وضع المدن:

- حصول زعماء هلاليين على سلطات ولائية ومحلية.
- تشكل كيانات قبلية تفرض نفوذها على المدن، إما حمايةً أو حصارًا.
- أصبحت المدن في كثير من الفترات في حالة تفاوض مستمر مع القوى القبلية المحيطة بها.

4- الأثر العمراني المباشر:

أ) تقلّص بعض المدن الكبرى:

- تراجع الامتداد العمراني الخارجي للقيروان وغيرها.
- إهمال بعض الأسوار الخارجية، أو تقلص العمران داخلها.
- ترك بعض الأحياء الطرفية بسبب انعدام الأمن.

ب) نشوء تجمعات بدوية قرب المدن: ظهرت ظاهرة يمكن وصفها بـ «الربض البدوي»؛ وهي تجمعات قبلية مستقرة نسبيًا قرب المدينة الرسمية. ومع الزمن تحولت بعض هذه الأرباض إلى مراكز حضرية لها أسواقها ووظائفها المحددة.

ج) ظهور نمط المدن الصغيرة المحصّنة: أعادت بعض المراكز الحضرية بناء نفسها بحجم أصغر، مع تركيز على: تحصين الداخل، تقليل الامتداد العمراني المكلف، ضمان الدفاع عن السكان والمرافق الأساسية.

5- أثر لغوي–ثقافي: من أبرز نتائج الهجرة الهلالية:

- انتشار العربية البدوية في الأرياف والسهول والهضاب.
- تغلغل اللهجات الهلالية في الوسط والجنوب المغاربي.

أثر ذلك على اللسان المغاربي وعلى أسماء المواضع والقبائل.

ثالثًا: أثر الهلاليين على النسيج الاجتماعي والعمراني

1- اندماج القبائل العربية بالقبائل الأمازيغية: أدّى هذا الاندماج إلى:

- تسمية أحياء ومدن بأسماء قبائل عربية أو مركبة.
- ظهور أسواق مخصصة لسلع البدو (الإبل، الجلود، المنتجات الرعوية).

- تغير بعض الوظائف داخل المدينة تبعًا لاحتياجات الوافدين الجدد.

2- نشوء مراكز جديدة على المسارات الرعوية: الهلاليون لم يكونوا أهل تأسيس مدن مكتملة، ولكن:

مسارات تنقلهم الرعوي حددت نقاط استقرار متكرر، تحول بعض هذه النقاط إلى محطات قوافل أو أسواق موسمية.

ومع الزمن صارت بعض هذه المحطات نواة لمراكز حضرية صغيرة.

3- أثر الهلاليين على الأسواق:

- ازدهار تجارة الإبل والمنتجات المرتبطة بالبداوة.
- ضعف بعض الصناعات الحضرية الراقية المرتبطة بالاستقرار الطويل.
- تحوّل جزء من النشاط التجاري من مراكز المدن القديمة إلى الأطراف والمسارات القبلية.

4- أثرهم على القرى والارياف: القرى الصغيرة المفتوحة لم تستطع المقاومة في المراحل الأولى، ولجأ كثير من سكان القرى إلى المدن المحصّنة طلبًا للأمن، وقدترتب على ذلك توسّع داخلي للمدن (اكتظاظ) مع انكماش زراعي حولها.

رابعًا: المحصلة العمرانية العامة للهجرة الهلالية

1- التحول من الاستقرار الزراعي إلى الامتداد الرعوي:

- تقلصت مساحة الزراعة في مناطق واسعة من إفريقية والمغرب الأوسط.
- تغيّر نمط التخطيط المدني نتيجة سيادة الرعي في محيط المدن.
- ظهرت قرى محصَّنة تستجيب للوضع الأمني الجديد.

2- انكماش المدن التقليدية: تراجعت مكانة مدن مثل: القيروان، المهدية، باجة، صفاقس... من حيث الامتداد الزراعي المحيط، والموارد الاقتصادية، والدور السياسي.

3- صعود نمط المركز الرعوي–التجاري: لم تتشكل مدينة حضرية كاملة بالمعنى الكلاسيكي، ولكن برز: مركز لسوق أسبوعي، محطة قوافل، ملتقى قبلي، أي: نمط حضري وسيط بين القرية والمدينة، يقوم بوظائف تجارية وقبلية أكثر منه بوظائف إدارية وعلمية.

4- التحول اللغوي والثقافي:

- ترسّخ الطابع العربي في الريف والبادية.
- انتشار اللهجات العربية الهلالية في مناطق واسعة.
- تغير أسماء كثير من المواضع والقرى تبعًا للقبائل الجديدة.

خاتمة:

أثرت الهجرات الهلالية في الغرب الإسلامي تأثيرًا عميقًا على العمران والمدن، ليس فقط عبر مظاهر الخراب أو الضعف، بل أيضًا عبر إعادة تشكيل الخريطة السكانية، وتحويل أنماط الاقتصاد، وإعادة توزيع المراكز الحضرية.

فقد أدت هذه الهجرات إلى انكماش بعض المدن الزراعية التقليدية، وظهور مراكز جديدة ذات طابع رعوي–تجاري، وانتشار العربية البدوية في الأرياف والسهول، مما ترك أثرًا واضحًا في بنية العمران واللغة والثقافة حتى العصور اللاحقة.

وبذلك تشكّل الهجرة الهلالية نموذجًا مهمًا لدراسة العلاقة بين الحركة القبلية وتحولات العمران في الغرب الإسلامي.

المحاضرة (14): هجرات الأندلسيين وأثرها على المدن في الغرب الإسلامي

مدخل عام:

تمثّل هجرات الأندلسيين إحدى أعمق التحولات الديموغرافية والثقافية والعمرانية التي شهدها الغرب الإسلامي عبر القرون، وقد امتدت هذه الهجرات منذ القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، وازدادت مع الفتن الأندلسية، ثم تضاعفت بعد سقوط طليطلة (478هـ)، وبلغت ذروتها بعد سقوط غرناطة سنة 897هـ، وتواصلت في موجات قسرية انتهت بطرد الموريسكيين سنة 1609م.

امتاز المهاجرون الأندلسيون بأنهم طبقة حضرية تضم: العلماء، الفقهاء، الأطباء، أصحاب الصناعات الرفيعة، الحرفيين المهرة، النخبة الثقافية.

ولذلك كان أثرهم العمراني والحضري عميقًا ومتعدد الجوانب، مختلفًا جذريًا عن أثر الهجرات القبلية كالتي درستَها في الهجرة الهلالية.

أولًا: الإطار التاريخي والجغرافي لهجرة الأندلسيين

1- موجات الهجرة الكبرى:

أ) هجرات سياسية قبل السقوط:

- حدثت بعد الفتن الأموية والعباسية في الأندلس.
- هجرات لاحقة بعد سقوط طليطلة سنة 478هـ.
- تزايدت بعد معركة العقاب 609هـ، وما ترتب عنها من ضعف مدن الوسط والجنوب.

ب) الهجرة بعد سقوط غرناطة (897هـ): وهي أعظم الموجات، وصفها المؤرخون بأنها تفريغ للأندلس من أهلها، حيث خرجت أعداد كبيرة من العلماء والحرفيين.

ج) هجرة الموريسكيين (905–1019هـ / 1500–1609م): وهي التهجير القسري الذي قامت به السلطة الإسبانية، وكان له أثر بالغ في المغرب الإسلامي عمومًا.

2- البلدان المستقبِلة للهجرة:

أ) المغرب الأقصى: فاس، سلا، الرباط، تطوان، شفشاون.

ب) المغرب الأوسط: تلمسان، الجزائر، بجاية، دلس، شرشال.

ج) المغرب الأدنى: تونس، المهدية، بنزرت، باجة، تستور.

وقد تركزت الهجرات في المدن الساحلية والمراكز الكبرى القادرة على استيعاب المهارات الحرفية والعلمية.

3- طبيعة المهاجرين وأثرها الحضري: وصفهم البكري وابن خلدون بأنهم أهل حضارة وريّاشة وصناعة وحذق، وهو ما يفسر: ازدهار الصناعات في المدن التي استقبلتهم، تنشيط الحياة العلمية، تعزيز الطابع الحضري للمدن.

4- الفرق بين الهجرة الأندلسية والهجرة الهلالية:

العنصر	الهجرة الهلالية	الهجرة الأندلسية
طبيعة المجتمع	قبلية بدوية	حضرية علمية صناعية
الأثر	رعوي–لغوي	عمراني–ثقافي–اقتصادي

أثرها على المدن	انكماش بعض المدن	إحياء وازدهار العديد من المدن
الصناعات	تراجع صناعات دقيقة	ازدهار صناعات رفيعة

ثانيًا: أثر هجرات الأندلسيين على المدن في المغرب الإسلامي

1- تأسيس مدن جديدة:

أ) تطوان (المغرب الأقصى):

- أعاد الأندلسيون بناءها بعد خرابها.
- تخطيط شوارع ضيقة، بيوت بيضاء، أسقف قرميدية.
- طابع أندلسي واضح في الفناء الداخلي والزخارف.

ب) شفشاون:

- أسسها مولاي علي بن راشد لاستقبال اللاجئين.
- جلب الأندلسيون طراز «المدن الجبلية» وطرق البناء الملائمة لها.

ج) تستور (تونس):

- أعاد الموريسكيون بناءها بطراز أندلسي مع مآذن فريدة الشكل وأحياء منظمة.
- امتازت بنظام مائي دقيق وأساليب زراعية متقدمة.

2- إحياء مدن قائمة:

أ) فاس:

- ساهم الأندلسيون في إحياء صناعات وحرف راقية:
- الحرير والدّباغة والصناعات المعدنية،
- نظام «الرياض» في المنازل،
- الموسيقى الأندلسية.
- وتشير المصادر إلى أن فاس بلغت أوج ازدهارها في ظل الوافدين من الأندلس.

ب) بجاية:

- تطورت فيها صناعة الورق والزرابي.
- أدخل الأندلسيون تقنيات الحدائق والزراعة المنتظمة.

ج) تلمسان:

- ظهور أحياء أندلسية مثل المشور والعباد.
- تطور الزخرفة الجصية والنقوش المتأثرة بالمدرسة الغرناطية.
- ازدهار علمي وفلسفي.

3- أثر الهجرة في الأسواق والحرف:

أ) إحياء الصناعات الراقية: الطراز الأندلسي، الصياغة الفضية، صناعة الورق، صناعة السيوف.

ب) إدخال تنظيمات عمرانية جديدة: تخصيص الشوارع للحرف، إدخال السوق المسقوف، ظهور الورش المتخصصة.

ج) تطوير الزراعة: إدخال زراعة الحمضيات، تحسين أنظمة السقي، اعتماد البساتين الداخلية في تخطيط البيوت.

4- أثرهم على الطراز العمراني:

أ) نظام الفناء الداخلي (الرياض): يتكون من: فناء مركزي، أشجار ونوافير، غرف تطل على الداخل لا الخارج.

ب) الأقواس الأندلسية: الأقواس الحدوية والمنكسرة في فاس وتطوان وبجاية وتلمسان.

ج) الأبواب والنوافذ الخشبية المنقوشة: زخارف دقيقة تشهد على مهارة الصناع الأندلسيين.

د) الحمّامات الأندلسية: نظام غرف مع قباب وأقواس داخلية منظمة.

ثالثًا: أثر الهجرة الأندلسية في المجتمع والثقافة والهوية

1- الأثر العلمي:

- انتقال العلماء والفقهاء.
- انتشار المدارس العلمية.
- ازدهار المخطوطات وانتقال المكتبات الخاصة.

2- الأثر اللغوي:

- إدخال ألفاظ زراعية وصناعية.
- أثر واضح على لهجات المغرب الأقصى خاصة في الجبال والمدن الساحلية.

3- الأثر الموسيقي:

- تشكل مدارس الطرب الأندلسي (المالوف، الغرناطي، الآلة).
- بجاية وتلمسان وفاس مراكز رئيسية.

4- الأثر الاجتماعي:

- إدخال نمط الأحياء المنظمة.
- تحسين أساليب العيش الحضرية.

رابعًا: أثر الهجرة في التكوين الحضري للمدن

- يمكن تلخيص التأثير الحضري المباشر فيما يأتي:
- إحياء المدن الحضرية القائمة عبر الصناعات والتعليم.
- تأسيس مدن جديدة ذات طابع أندلسي خالص.
- تحسين شبكات السقي والحدائق.
- إغناء النسيج الثقافي واللغوي.
- تحول بعض المراكز الصغيرة إلى مدن مزدهرة بفضل الحرف الأندلسية.

خاتمة:

أحدثت هجرات الأندلسيين تحولًا عمرانيًا عميقًا في المغرب الإسلامي، فقد أسسوا مدنًا جديدة، وأحيوا مدنًا قائمة، ونقلوا معهم خبرات علمية وصناعية وزراعية وفنية جعلت من المراكز الحضرية التي استقروا فيها مراكز إشعاع حضاري.

وقد أسهمت هذه الهجرات في تشكيل الهوية الثقافية والعمرانية للمغرب الأوسط والأقصى والأدنى، وأصبحت جزءًا لا يتجزأ من الذاكرة التاريخية للغرب الإسلامي.

إن دراسة هجرات الأندلسيين ليست دراسة لسكان رحلوا فحسب، بل هي دراسة لانتقال حضارة كاملة استمرت آثارها قرونًا وما تزال قائمة في عمران المغرب وشخصيته الثقافية.

المحاضرة (15): العمران والديموغرافيا في الغرب الإسلامي

مدخل عام:

يمثّل العمران والديموغرافيا أحد المفاتيح الأساسية لفهم تطوّر المدن في الغرب الإسلامي، لأن العمران ليس مجرد مبانٍ أو منشآت، بل هو -كما يعرّفه ابن خلدون -: ترتيب الأحوال في الاجتماع الإنساني.

ويقوم هذا العمران على عناصر متشابكة تشمل: الماء والموارد الطبيعية، السكان وتوزيعهم، الاقتصاد وشبكات التجارة، الأمن والاستقرار السياسي، الحركة العلمية، شبكات الطرق، تدبير الأرض والزراعة.

ومدن المغرب الأوسط -تلمسان، بجاية، الجزائر، المسيلة، قسنطينة، مليانة، وادي ميزاب- تعدّ نموذجًا مثاليًا لتحليل العلاقة بين العمران والديموغرافيا، لكون كل مدينة منها نشأت وفق شروط جغرافية خاصة، وتطورت تبعًا لتحولات سياسية وسكانية متعدّدة.

أولًا: الأسس العمرانية لمدن المغرب الأوسط

1- الأساس الجغرافي:

أ) الماء أصل العمران: تشكّلت مدن المغرب الأوسط حول موارد مائية واضحة:

- **تلمسان:** عيون "الحمراء" و"تافنة."
- **بجاية:** الأودية الساحلية وادي الصومام.
- **المسيلة:** وادي الهضاب العليا.
- **وادي ميزاب:** نظام الفلوج والفسقيات لتقسيم المياه.

ب) الممرّات التجارية: الموقع التجاري كان عنصرًا حاسمًا في نمو المدن:

- **تلمسان:** عقدة طريق فاس–سجلماسة–تونس.
- **بجاية:** ميناء يربط المغرب الأوسط بالمتوسط.
- **المسيلة:** نقطة التقاء التلّ بالصحراء.

ج) الحماية الطبيعية: الطبوغرافيا أسهمت في اختيار موقع المدينة: جبال بجاية، هضاب مليانة، قلاع تلمسان.

ثانيًا: النمو الديموغرافي في مدن المغرب الأوسط

1- دور القبائل في التوزيع السكاني

أ) القبائل المستقرة: مثل: بني واسين، بني توجين، صنهاجة... أسهمت في تأسيس أحياء ثابتة حول المدن ونقل نمط عيش مستقر.

ب) القبائل المتنقلة: كان تأثيرها واضحًا في: توسع الأسواق، نشوء الأرباض خارج الأسوار، تغيّر الوظائف الاقتصادية.

ج) التحضّر التدريجي: شهد المغرب الأوسط مراحل انتقالية من البداوة نحو التحضّر في محيط المدن الكبرى.

2- حركة السكان بين الأرياف والمدن:

زمن الرخاء: تتوسع المدن وتستقبل فلاحين وتجارًا.

زمن الأزمة: ينكمش السكان نحو القرى أو نحو داخل الأسوار.

مثال: يذكر البكري أنّ بجاية تضاعف سكانها في القرن الخامس الهجري لعدة أسباب: خصوبة الأرض، وجود ميناء، قدوم العلماء من عدة مناطق.

3- أثر العلماء والفقهاء: يقول ابن خلدون: "إذا كثرت العلوم، عظم السكان". المدن العلمية مثل تلمسان وبجاية جذبت: طلبة العلم، النسّاخ، الفقهاء، الحرف المرتبطة بالكتاب. ما رفع عدد سكانها وأدى إلى توسّع عمرانها الداخلي.

4- أثر التجارة البحرية: خاصة في بجاية والجزائر، حيث امتزج السكان: تجار صقليون، تجار من المشرق، بحارون محليون، حرفيون حضريون. مما جعل المدن الساحلية أكثر نموًا ديموغرافيًا من المدن الداخلية.

ثالثًا: نماذج مدن المغرب الأوسط

1- تلمسان (حاضرة المغرب الأوسط):

أ) البنية العمرانية: القصر، العباد، المشور، أسواق متخصصة (العطارين، السقاطين)، حدائق داخلية.

ب) الديموغرافيا: قبائل زناتية محيطة، سكان حضريون من أصحاب الحرف، طلبة علم يفدون سنويًا، حرفيون مهاجرون.

ج) عوامل النمو: الاستقرار الزياني، محور تجارة، مدارس علمية قوية.

2- بجاية (مدينة العلم والبحر):

أ) العمران: المدينة العليا (حصينة)، المدينة السفلى (الميناء)، قصبة بجاية، حدائق جبلية.

ب) السكان: أهل البحر، أهل العلم، زراعة جبلية، صانعو الورق.

ج) النمو: بلغت إحدى أعلى نسب النمو السكاني في القرن السادس والسابع هجري.

3- الجزائر:

أ) العمران: القصبة، مبانٍ ساحلية، أسوار عالية.

ب) السكان: تجار البحر، حرفيو المعادن، سكان الرباطات القديمة.

4- المسيلة: مركز صنهاجي تاريخي، منطقة تعتمد على السواقي والزراعة، حركة سكانية بين التل والصحراء، أسواق أسبوعية كبيرة.

5- وادي ميزاب:

أ) العمران: القصور الخمسة: غرداية، العطف، مليكة، بونورة، بني يزقن.

ب) ديموغرافيا: مجتمع مستقر، تنظيم جماعي للماء، نمط سكني متجانس.

رابعًا: العلاقة بين العمران والديموغرافيا

1- قواعد عامة تحكم العلاقة:

أ) الديموغرافيا المستقرة ⟵ عمران قوي

توافر الماء، الأمن، العلم، والتجارة يؤدي إلى: توسّع الأحياء، بناء أسواق، إنشاء مدارس وجوامع.

ب) الديموغرافيا المهتزة ⟵ عمران هش

الحروب، الأزمات، الهجرة القسرية تؤدي إلى: تقلّص الأحياء، ضعف الوظائف الاقتصادية، خراب بعض المنشآت.

2- تحولات المدن حسب الكثافة السكانية:

- القرى تتحول إلى مراكز صغيرة عندما تستقبل قبائل مستقرة أو حرفيين.
- المدن الصغيرة تتحول إلى مدن كبيرة عند توفر العلم والتجارة.
- بعض المدن الكبرى تنكمش عند نقص الموارد أو ارتفاع الاضطرابات.

خاتمة:

يتّضح من خلال دراسة مدن المغرب الأوسط أنّ العمران والديموغرافيا عنصران متكاملان؛ فلا يمكن فهم تطوّر المدن دون فهم تحوّلات السكان، ولا تفسير النمو السكاني دون ربطه بموارد الماء، والتجارة، والحياة العلمية.

وتظهر نماذج مثل تلمسان وبجاية ووادي ميزاب أن قوة المدينة لا تقوم على العمارة وحدها، بل على انتظام السكان، واستقرارهم، واندماجهم في منظومة اقتصادية وعلمية متوازنة.

وبذلك فإن تحليل العمران في الغرب الإسلامي هو تحليل للتاريخ الاجتماعي والسياسي والثقافي للمنطقة، وهو ما يجعل هذا المقياس من أعمدة الدراسات الحضرية في التاريخ الوسيط.

الخاتمة:

يمثّل العمران في الغرب الإسلامي أحد أهم المفاتيح لفهم طبيعة التحوّل الحضاري الذي شهدته المنطقة منذ مرحلة الفتح إلى العصور اللاحقة، إذ لا يمكن دراسة التاريخ السياسي أو الاجتماعي أو الاقتصادي دون إدراك كيفية تشكّل المدن وتطوّرها، وما انتظم حول ذلك من قيم ومؤسسات وهياكل وظيفية. وعلى امتداد هذا المقياس، تبيّن لنا أن العمران لم يكن ظاهرة مادية محضة، بل هو بناء مركّب تتداخل فيه الجغرافيا والاقتصاد، وتنعكس عليه المذاهب الفكرية والدينية، ويحدده مستوى الوعي الاجتماعي والتنظيم الإداري.

لقد أظهرت المحاضرات الأولى البعدَ المفهومي للعمران في الفكر الإسلامي، من خلال النظر إلى العمران باعتباره فريضة حضارية ترتبط بالاستخلاف والعدل والتوازن. وتأكد هذا المنظور أكثر عند ابن خلدون الذي قدّم إحدى أهم النظريات في تاريخ العمران البشري، حيث جعل من الاجتماع الإنساني مركزًا لكل نشاط عمراني، وربط بين صعود الدول وضعفها وبين ازدهار العمران أو تراجعه، في تفسير اجتماعي-اقتصادي أصبح اليوم من ركائز علم الاجتماع التاريخي.

كما أكّدت دراسة خصائص العمارة الإسلامية أن المدن المغربية والأندلسية لم تكن مجرد تجمعات سكنية، بل فضاءات تعكس روح المجتمع وقيمه، إذ ظهر في المساجد، والمدارس، والقصور، والأسواق، والحدائق، مستوى رفيع من التناسق الجمالي والوظيفة العملية، وإدماجًا ناجحًا للبيئة المحلية ضمن رؤية عمرانية مستمدة من مقاصد الشريعة.

ومن الناحية التاريخية، أبرزت محاضرات المراحل العمرانية – من الفتح إلى العهد الفاطمي ثم الأندلس، فالمرابطين، والموحدين، والزيانيين، والمرينيين، والحفصيين – أن العمران في الغرب الإسلامي اتخذ مسارًا متطورًا يرتبط بالتحولات السياسية والاقتصادية؛ فالمدن تكبر باستقرار الدولة، وتضعف باضطراب الحكم، وتزدهر بازدهار العلم والتجارة، وتتراجع بتراجع الأمن أو الموارد. كما برز الدور المؤثر للجغرافيا؛ فالجبل له نمط عمراني، والساحل له نمط آخر، والواحات أنشأت نموذجًا ثالثًا، ما يعكس قدرة المجتمع المسلم على التكيّف والإبداع في بيئات مختلفة.

أما الظواهر الطارئة مثل الكوارث الطبيعية والحروب والهجرات، فقد كشفت عن هشاشة بعض المدن وصلابة بعضها الآخر. فالكوارث الطبيعية دفعت إلى تحسين البناء وتعزيز التحصين، بينما أثّرت الحروب الداخلية والخارجية في إعادة تشكيل مراكز الثقل الحضري ومسارات التجارة. وأظهرت الهجرات – سواء الهلالية ذات الطابع البدوي، أو الأندلسية ذات الطابع الحضري – عمق العلاقة بين التحولات السكانية والتحولات العمرانية، حيث أدت الأولى إلى انكماش بعض المدن وتحوّل نمط إنتاجها، في حين أدت الثانية إلى نهضة صناعية وفنية وعمرانية في مدن المغرب الأوسط والأقصى.

وتأسيسًا على ما سبق، يتضح أن العمران في الغرب الإسلامي كان مشروعًا حضاريًا شاملاً لا يمكن قراءته بمعزل عن سياقه الديني والاجتماعي والسياسي. لقد أسهم في بناء هوية حضارية متماسكة، وترك بصمة واضحة في الذاكرة العمرانية للجزائر والمغرب وتونس والأندلس، واستمر أثره إلى اليوم في المدن القديمة وأسواقها، ومساجدها، وأنظمتها المائية، وطرزها الهندسية.

إن دراسة هذا المقياس تمنح الطالب قدرة على فهم التاريخ من منظور شامل لا يكتفي بالأحداث السياسية، بل ينظر إلى المدينة بوصفها شاهدًا حيًا على التحولات الحضارية. ومن خلال هذا المنظور يصبح التاريخ أكثر حياة، والعمران أكثر معنى، وتصبح قراءة الماضي خطوة نحو استيعاب الحاضر والتفكير في المستقبل.

وبذلك تكون هذه المطبوعة قد وضعت بين يدي الطلبة رؤية متكاملة لمسار العمران في الغرب الإسلامي، تجمع بين التأصيل الفكري، والتحليل التاريخي، والدراسة الميدانية للنماذج الحضرية، على أمل أن تكون منطلقًا لمزيد من البحث العلمي المتخصص في تاريخ المدن والحضارة الإسلامية.

المراجع:

- أبو زيد، كمال. (2003). *تاريخ تلمسان عبر العصور الإسلامية*. الجزائر: دار اليمامة.
- أبو عبيد البكري. (1992). *المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب*. تحقيق: عبد الله العروي. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.
- ابن أبي زرع، علي بن عبد الله الفاسي. (1999). *الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية*. تحقيق: عبد الوهاب بن منصور. الرباط: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.
- ابن الأثير، علي بن محمد. (1998). *الكامل في التاريخ*. بيروت: دار الكتب العلمية.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد. (2004). *المقدمة*. القاهرة: مكتبة نهضة مصر.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد. (2005). *كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر*. بيروت: دار الفكر.
- ابن الرامي، محمد بن محمد التونسي. (1986). *الإعلان بأحكام البنيان*. تحقيق: فريد الزاهي. الدار البيضاء: دار توبقال.
- ابن الزيات التلمساني، أحمد بن أحمد. (1983). *التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي*. الرباط: دار الثقافة.
- ابن الصغير. (1986). *أخبار الأئمة الرستميين*. تحقيق: علي محمد معوض. بيروت: دار الكتب العلمية.
- ابن القنفذ القسنطيني، عبد الرحمن بن محمد. (1986). *الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية*. تحقيق: محمد العروسي المطوي. تونس: الدار التونسية للنشر.
- ابن قميرة السبتي. (1998). *الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك بني مرين وبني وطاس*. تحقيق: محمد بن تاويت. الرباط: المطبعة الملكية.
- ابن الهائج، محمد بن محمد. (2001). *عمارة المغرب الإسلامي*. القاهرة: دار الفكر العربي.
- ابن حوقل، محمد بن الحسن النصيبي. (2014). *صورة الأرض*. بيروت: دار صادر.
- بوحسين، عبد القادر. (2011). *الديموغرافيا في المغرب الإسلامي الوسيط*. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- بن يوسف، فوزي. (1999). *بجاية حاضرة العلم والبحر*. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
- تركي، عبد العزيز. (2008). *العمران في الغرب الإسلامي*: نشأته وتطوره. الرياض: دار العلوم.
- جني، لطفي. (2017). *البنية الاجتماعية والعمرانية في المغرب الإسلامي*. تونس: دار المعرفة.
- الحجي، بشار. (1984). *تاريخ المغرب والأندلس*. بيروت: دار القلم
- الخطيب، أحمد. (2002). *التحضر الإسلامي*: رؤية تاريخية عمرانية. عمان: دار البشير.
- داود، محمد. (1990). *تاريخ تطوان*. تطوان: المطبعة الوطنية.
- الذهيبي، عبد الله. (2005). *الهجرة والتحضر في المغرب الإسلامي*. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- الرفاعي، هشام. (2012). *التخطيط الحضري في الحضارة الإسلامية*. القاهرة: دار السلام.
- سعيدان، حسن. (1998). *المدن الإسلامية في المغرب الأدنى*. تونس: دار الغرب الإسلامي.
- شرف الدين، عبد الله. (2010). *العمران الأندلسي وأثره في المغرب الإسلامي*. فاس: منشورات كلية الآداب.
- الصيادي، محمد. (2003). *القبائل والهجرات في المغرب الأوسط*. الجزائر: دار الهدى.
- العروي، عبد الله. (1998). *مجمل تاريخ المغرب*. *الدار البيضاء*: المركز الثقافي العربي.
- العزاوي، عبد العزيز. (2003). *حضارة المغرب الإسلامي*. دمشق: دار الفكر.

- العنابي، عبد الحق. (2015). *التحولات العمرانية والديموغرافية في الجزائر الوسيطية*. الجزائر: دار الخلدونية.
- القاسمي، عبد الهادي. (2001). *التحضر والعمران في الغرب الإسلامي*. فاس: منشورات جامعة سيدي محمد بن عبد الله.
- كوام، إسماعيل. (2009). *العمران والموارد الطبيعية في المغرب الأوسط*. الجزائر: منشورات.ANEP
- لبّادة، عبد الجليل. (2005). *المراكز الحضرية في المغرب الإسلامي*. الرباط: دار أبي رقراق.
- محمد، عبد الناصر. (2013). *التاريخ الحضري للمغرب الإسلامي*. القاهرة: دار الفكر الجامعي.
- المقدسي، محمد بن أحمد. (2006). *أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم*. بيروت: دار صادر.
- النويري، أحمد بن عبد الوهاب. (2004). *نهاية الأرب في فنون الأدب*. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب. (2002). *البلدان*. بيروت: دار صادر.